عبد الباقـي يوسـف

أمريكا كاكا

روايـــة

صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عن دار اسكرايب للنشر والتوزيع في القاهرة سنة 2020، وتُرجَمَت إلى اللغة الانجليزيّة

الفصل الأول

أنقرة، تتشابه مع دمشق، كما أن دمشق تتشابه مع حلب، عندما وطأت قدماه طرقات أنقرة، شرع يتأمل كل شيء بدهشة، راوده إحساسٌ بأنه بَرَحَ لتوه ساحات دمشق، ودلف أزقة حلب، حتى ثياب الناس هنا تتشابه، الطقوس اليومية، التقاليد، ملامح وجوه الناس، قباب المساجد، الأسواق القديمة، روائح المشاوي في المساءات، المطاعم الأنيقة، نساء شبه عاريات، نساء محجبات يتسوقن جنباً إلى جنب.

أناس يترنَّحون من السكر في الطرقات مع هنيهات الفجر الأولى، أناس يترنَّحون نعاساً وهم يخرجون من المساجد مع هنيهات الفجر الأولى، قهقهات نساء خارجات من الملاهي الليلية في آخر الليل، أفواج السياح وهم يجوبون الشوارع، عيون رجال الأمن المحدِّقة في كل شيء يتحرَّك.

لكن الخلاف الذي وقع منذ نحو خمس سنوات، أن أنقرة بقيت على ما هي عليه، ودمشق بدأت تتجرَّد من كل ما هي عليه؛ لم تعد دمشق تتشابه مع أنقرة، لم يعد الناس يزورونها لقطف ياسمينها كما اعتادوا، فقد أدركوا أن أشجار الياسمين تحوَّلت إلى ألغامٍ موقوتةٍ، وكل شارع من شوارعها أمسى لغماً موقوتاً تفوح منه رائحة البارود.

عندما تقدَّمت به قدماه إلى بناء السفارة الأمريكية في أنقرة، تخيَّل بناء السفارة الأمريكية في دمشق، لكن الفرق أنها باتت مغلقة وقد هجرها سفيرها، هجرها كل أركان السفارة، حتى الحرَّاس هجروها، كما الأمر

بالنسبة لكل سفراء العالم الذين تركوا سفاراتهم وهجروها، لتبقى دمشق عاصمة يتيمة بلا سفارات، بلا سفراء يمثِّلون بلادهم فيها.

لم يكن يخطر له ذات يوم أنه سينضم للملايين الذين استجابوا لهذا الكره، عندها ومع خطوات الخروج الأولى من رائحة ذكريات عمرٍ بأكمله، رأى كيف أن الدم بدأ يسيل من عَينَيه بدلاً عن الدموع، رأى كيف أن غصَّةً علت حنجرته وراحت تستقرّ فيها، حينها أدرك أنها غصَّة الهروب، وأنها تأبى الخروج حتى يعود إلى رائحة المكان.

دلفت به خطواته إلى أحشاء السفارة متأبطاً طلب السفر إلى أمريكا، عندما جاء دوره للمقابلة مع مسؤول الموافقة على تأشيرة الدخول، نظر الرجل بشيءٍ من التدقيق في الجهاز الذي أدخل فيه اسمه من جواز السفر، ثم رفع نظره يرمقه بإمعانٍ وهو يهزّ رأسه، ضغط على زر، وبعد قليل حضر رجلان، تحدَّث المسؤول معهما بهمس، وأجاباه بذات الهمس، وهم جميعاً يصوّبون نظراتهم إليه.
بعد نحو خمس دقائق، خرج الرجلان، وقال له المسؤول: حسناً.. يمكنك أن تراجعنا بعد عشرة أيام.
عشرة أيام أخرى؟ قالها للمسؤول
عشرة أيام أخرى، تلقى الإجابة.

هزّ رأسه، وبَرَحَ مبنى السفارة، أوقف سيارة طالباً منها أن توصله إلى الشقة المفروشة التي استأجرها قبل أسبوعين عندما وصل أنقرة.
بعد تحرّك السيارة بقليل، أحس بأن بطنه يقرقر جوعاً، نظر إلى الساعة من خلال هاتفه الخلوي، فرآها تشير إلى الثانية، عندئذ قال للسائق: أوسطة، المعذرة، خذني إلى مطعم.
هزّ السائق رأسه قائلاً: أمرك عزيزي، كيف تريد للمطعم أن يكون؟

قال: وسط.

بدأ ينظر إلى كل شيء تقع عليه عيناه من خلف زجاج السيارة، يتأمَّل الشَبَه العجيب بين دمشق، وحلب، وأنقرة، كما لو أن أنقرة مدينة سورية.
في تلك اللحظات، تناهت إلى سَمَعِه نبرات السائق: يبدو بأنك غريب؟
قال: أزور تركيا لأول مرة
قال: لا مؤاخذة، من أين حضرتك؟
قال: من سورية
قال السائق: سورية جميلة، لا تستحق كل هذا الذي يحصل لها، يا خسارة.
قال: هذه ضريبة إجماع محبة العالم كله لها!
التفت إليه السائق مستغرباً وقال: يحبونها ويفعلون بها كل هذا؟!
قال: إنهم يقولون بأن محبتهم لها تجعلهم يُقدِّمون لها ما يستطيعون من هدايا تُعبِّر عن حجم محبَّتهم لها.
ثم استأنف بعد قليلٍ من الصمت وقد بدا السائق في حالة إصغاء شديدة له:
باتت سورية يا عزيزي تتفرَّد بأنها الدولة الوحيدة في العالم التي يجمع العالم كله على قوة صداقته، ومحبته لها، وتآزره معها: قارات، واتحادات، ودول، ومنظمات، وأحزاب، وهيئات، وجماعات.. باتت الدولة الوحيدة التي لا أحد يُعاديها، أو يحمل تجاهها غِلاًّ، وهذا ليسَ محض أقوال يطلقها أصدقاؤها ومحبوها، بل أنهم يُترجمون أقوالهم إلى أفعالٍ تتفاعل على أرض سورية، وفي ظهراني شعبها يوماً بيوم، وساعةً بساعة.

أما رأيتَ يا عزيزي كيف أن الذين يقصفونها بهداياهم، جوّاً، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.

والذين يقصفونها بهداياهم برّاً، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.

والذين يقصفونها بهداياهم بحراً، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.

والذين يُدرِّبون المقاتلين على السلاح بتقنيات حديثة، ويبثّون فيهم الروح القتالية العالية، ويُرسلونهم للقتال فيها، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.

الذين يرسلون لها الأسلحة سراً، وعلناً، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.

الذين يحرِّضون الناس في المنابر للقتالِ في ساحاتِها، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.

الذين يُجنِّدون المقاتلين من كل بقاع الأرض، ويأتون بهم للقتال فيها، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.
الذين يُلبسون الشبّان أحزمة ناسفة، ليفجِّروا أنفسهم في مساجدها، وروضات

أطفالها، وأسواقها، يقولون بأن قوة صداقتهم ومحبتهم لها تدفعهم إلى ذلك، ولم يجدوا سبيلاً لترجمة أقوالهم إلى أفعال سوى هذا السبيل.

مئات المؤتمرات، والندوات، والملتقيات، يقيمها أصدقاؤها، ومحبوها في كل أنحاء العالم، يتغزَّلون فيها بقوة صداقتهم، ومحبتهم، ودلالهم.

أرأيتَ كم هي محبوبة سورية، وكم هي مُدللة، وكم أنها الدولة الوحيدة التي اجتمع العالم كله على صداقته، ومحبته لها، فتخيّل - لا سمح الله - لو أن ذلك كله انقلب عكساً، وتحوَّل الجميع إلى أعداءٍ لها، تخيَّل عزيزي - لا سمح الله - ما الذي سيحل بها؟!.

لبث الرجل يقود، وبين لحظة وأخرى ينظر إليه.. بعد قليل أوقف السيارة بجانب مطعم، وهو يقول: لعنة الله على السياسة، وقانا الله شرّها.. تفضل أستاذ، هذا مطعم حسب طلبك.

أمضى نحو نصف ساعة في المطعم، تناول فيها وجبة الغداء، ثم ما لبث أن خرج، وأشار لسيارةٍ أن توصله إلى الشقة.
فور دخوله، استلقى على السرير قبل أن يُبدِّل ثيابه، ولا يدري كيف أخذته الغفوة، ليفتح عينيه على ظلمةٍ، مدَّ يده إلى جهاز الموبايل، فرأى أن الساعة بلغت السابعة والنصف مساءً، أشعل الضوء، ثم خلع ثيابه، ودخل الحمام حاملاً جهاز الهاتف.
تسمَّرت به قدماه، بدأت دموع غزيرة تسيل من عينيه، ثم قذف الجهاز إلى السرير، بدأ يمسح دموعه بباطن كفيه، ثم دوى منه صوت كما لو أنه انفجار: رحاب.. رحاب.. رضوى.. رضوى .. وراح صوب النافذة يستردّ شيئاً من هدوئه.

كان في سورية اعتاد كلّما دخل الحمّام، حمل معه جهاز الهاتف ليستمع منه إلى بعض الأغنيات وهو يستحم.
منذ ذلك اليوم لم يستطع أن يستمع أغنية، فقد الرغبة في الاستماع إلى أي أغنية من تلك الأغاني التي كان يداوم على سماعها في البيت مع رضوى، ورحاب، لم يستطع تخيُّل أنه قادرٌ على الاستمتاع بكل تلك الأغنيات دونهما.
كان يدندن مع الأغنيات سواء في الحمّام، أو عندما يحلق ذقنه، أو عندما يتناول الفطار صباحاً، أو عندما يحتسي القهوة مساءً، حتى أنهما اعتادتا على هذه الطقوس، وبدت رحاب رغم صغر سنّها حافظة لبعض أغنيات فيروز التي كان صوتها يملأ البيت صباحاً، ثم أغنيات عبد الحليم حافظ، فريد الأطرش، نجاة الصغيرة.

عاد إلى الحمّام بخطواتٍ باردةٍ، وهو يرمق جهاز الهاتف كجثة على السرير، أمضى نحو نصف ساعة في الحمّام وخرج، صنع كوباً من القهوة السورية التي اشتراها الأسبوع الماضي، وقد لفت نظره كيف أن البضاعة السورية ما تزال سيّدة في المولات، والمحال الكبيرة والصغيرة.
عشرة أيام مملّة أخرى، كرَّر الجملة ثلاث مرات، تخيَّل ضجر الأيام العشرة التي انتظرها ريثما جاء دوره للمقابلة، والآن عليه أن ينتظر عشرة أيام أخرى، خطر له بغتة أن يمضي هذه الأيام متنقلاً بين المدن والبلدات التركية.

في الصباح خرج من البيت بحقيبته الصغيرة التي تحتوي على بعض حاجاته الشخصية، وبدأ رحلة التنقل بين البلدات، والمدن: اسطنبول، أزمير، ديار بكر، قزلتبة، غازي عنتاب، أضنة، ماردين، مرسيليا.

لفت نظره حضور الأطباء السوريين في المشافي والعيادات، والإقبال الشديد عليهم من قِبَل الأتراك، المأكولات السورية التي انتشرت من خلال المطاعم التي فتحها السوريون خلال السنوات الخمس الماضية، حتى الشوارع اكتظت بالسوريين، وهم يُدخلون نكهة الحرفة السورية إلى إيقاع الحياة التركية.

مضت الأيام مسرعة، وهو يتنقل من بقعة إلى أخرى، من فندق إلى آخر، حتى ألفى نفسه عائداً إلى الشقة، نام في تلك الليلة مبكّراً لأن الصباح سيكون موعده مع المسؤول في السفارة.

في السابعة صباحاً، استفاق، حلق ذقنه، ثم استحم، وبعد قليل خرج حاملاً حقيبته، دخل مطعماً، وتناول بعض المناقيش مع الشاي، وفي التاسعة، دخل على المسؤول في مكتبه.

رحَّب به الرجل عندما رآه، وطلب له كاساً من الشاي، ثم ترك كرسيه وجاء يجلس بجانبه قائلاً: كنا خلال الأيام الماضية نقوم ببعض التحريات الضرورية عنك، لأننا يجب أن نعرف معلومات هامة عن حياة الشخص الذي نُدخله إلى أراضي الولايات المتحدة، ونُدخله إلى الشعب الأمريكي.

هزّ رأسه وهو ينظر إليه، ثم أردف يقول: نحن لدينا معلومات عن كل شخصٍ تحدّث عن أمريكا في أي وسيلة اتصال كانت، وأنت تحدَّثتَ عن أمريكا وقتاً طويلاً.
تفاجأ بالكلام، وقال على الفور: أنا ؟!

قال: نعم أنت، تحدَّثتَ في مكالمة هاتفية طويلة من هاتف بيتك الأرضي في سورية، مع آنسة كانت تقيم في بيت أخيها في الولايات المتحدة، كان ذلك في الخامس والعشرين من شهر إبريل سنة 2003
وضع باطن كفه على جبهته، وتمتم: صحيح.. صحيح..
قال الرجل: لأنني لا أقول غير الصحيح، ولا تستطيع إلاّ أن تقرّ بأن كلامي هو صحيح.
قال وهو ينظر إليه: وهذا أيضاً صحيح
قال الرجل: نحن نحتفظ بالمكالمة التي أجريتها مع الآنسة، وقد تحدّثتما فيها عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

انهمرت دموع من عينيه، وبدأت تتداعى إليه مشاهد بدايات لقائه برضوى التي استطاعت أن تؤسِّس لذاك التحوّل المزلزل في عواطفه، وكأنه ترك سورية هرباً من مرارة الحاضر، ليحترق هنا بنار الماضي الذي انبثق منه هذا الحاضر الأليم.
تخيَّل في تلك اللحظة كيف أن هذا الرجل يمتلك أهم وثيقة تخص عواطفه، ومشاعره، وذكرياته، يمتلك أهم وثيقة تخص واقع الحياة الاجتماعية في بلاده.
عندئذ قال الرجل: لقد تم البث بشأن طلبك، والسفير بنفسه هو الذي سيخبرك به، عندما تدخل إليه في مكتبه، لكنه الآن خارج المكتب بسبب استقباله لوفد أمريكي، ولدينا عطلة في اليومين القادمين، موعد دخولك إلى السيد السفير هو بعد ثلاثة أيام، في الساعة التاسعة صباحاً.
عادت به خطواته، حتى أحس بأن مبنى السفارة لفظه، غدا يبتعد عن المبنى وهو يستدير إليه، بين عدّة خطوات وأخرى متخيلاً وجود كل تلك الذكريات والأسرار هناك.
لم يستطع أن يتجه على الفور إلى البيت، وبذات الوقت لم يشعر برغبة الصعود إلى سيارة أجرة لتأخذه إلى مكان ما.

أحس بحاجته إلى المشي في طرقات هادئة، فبدأ يدس جسده في الشوارع الفرعية الأقل ازدحاماً، وبعد نحو ساعتين من المشي، تراءت له حديقة صغيرة، فيها ألعاب للأطفال، امتدَّت خطواته إلى الداخل، واقتعد كرسياً، يتأمَّل الأطفال في ألعابهم.
وقعت عيناه على طفلٍ يحمل عبوات ماء معدني، أشار له بكفه، فتقدَّم الطفل إليه، طلب منه عبوة، عرف من لكنته في الحديث بأنه سوري، ناوله قيمة العبوة، فانصرف الطفل.

أمضى الوقت حتى المساء في الطرقات، وعندما عاد، أراد أن ينام مبكّراً حتى يأتي الصباح، كي يقترب الموعد، لم يعد يهمه شيء سوى حلول الموعد ومقابلته مع السفير.
كم راوده أحساسٌ عميقٌ بالشوق لسماع ذاك الحديث الطويل، والعودة إلى كل تلك الأجواء التي عاشها لحظة بلحظة، تخيَّل بأنه يطلب من السفير أن يُسمعه لذاك الحديث، لكن هل يستجيب لمطلبه، أم أن ذلك يدخل ضمن أسرار الولايات المتحدة، ولا تُطلع أحداً عليه.

تناول زجاجة من اللبن كي ينام باكراً، لكن الأفكار بدأت تشتعل في رأسه حتى رأى خيوط الضوء تتسرَّب من خلف زجاج النافذة. عند ذاك لا يدري كيف أخذته غفوة ليرى نفسه مستيقظاً في العاشرة صباحاً.
لم ينتظر في البيت كثيراً، ارتدى ثيابه، وخرج على الفور، أمضى النهار كله وهو يتجوَّل في المدينة، وعندما حلّ الظلام، عاد ثانية إلى البيت، أمضى نصف ساعة في الحمّام، ثم أشغل التلفاز، واستلقى على الكنبة لابثاً بين النوم واليقظة على صوت التلفاز حتى أدركه الصباح.
عندئذ تمتم: 24 ساعة بقيت. لا يدري لماذا أحس برغبة البقاء في البيت، لبث مسترخياً في السرير حتى الثانية عشرة ظهراً عند ذاك، نهض وتناول بعض الطعام، ثم جلس ينظر إلى صور رحاب، ورضوى المخزَّنة في

الهاتف والغصة تزداد ثقلاً في حنجرته، ثم أخذ ينشج بصوتٍ كسيرٍ، وغدا نشيجه يملأ صمت الشقة.

الفصل الثانـي

عندما أشارت الساعة إلى الثامنة والنصف صباحاً، خرج من البيت، واتجه على الفور إلى السفارة، مضى نحو المكتب حتى دلف على المسؤول الذي ما إن وقعت عيناه عليه حتى مدَّ سبابته على زر، وبعد نحو دقيقتين، جاء شخص، فطلب منه المسؤول أن يصحبه إلى مكتب السفير، مضى مع الشخص حتى أدخله إلى المكتب، عندئذ رحَّب به السفير، وطلب منه الجلوس، ثم بعد قليل قدَّم له شخصٌ كأساً من حليبٍ ساخنٍ مع قطعة كاتو.

قال السفير: عندما تحرَّينا عن معلومات تخصّك، وجدنا مكالمة طويلة كنتَ قد أجريتها مع صديقة لك اسمها رضوى، كانت في زيارة لبيت أخيها في الولايات المتحدة، وما جعلنا نحتفظ بالمكالمة هو حديثكما الطويل عن الولايات المتحدة، وأيضاً عن هجمات سبتمبر، لقد درسنا طلبك للسفر إلى الولايات المتحدة..

قال: هل يمكن السماح لي بسماع تلك المكالمة؟

قال السفير: أنا استمعتُ إليها كاملة، ثم صمتَ قليلاً، ليردف: لا توجد لدي تعليمات بعدم سماعها لك بناءً على رغبتك، يمكنك الآن أن تستمع إليها، وبعد أن تنتهي من سماعها، سأخبرك بالقرار الذي تم اتخاذه بشأن طلبك.

غمره شعور غريب بأنه سيعود أربعة عشر سنة إلى الوراء، إلى كل لحظة من تلك اللحظات الغابرة.

طلب إليه السفير أن يمضي نحو حجرةٍ ملحقةٍ بالمكتب الداخلي الذي بدا على هيئة شقة، جلس على كرسي في الحجرة المظلمة بعض الشيء، بعد لحظات من جلوسه، تم إغلاق الباب، ثم انبعثت نبرات صوته من جهة لا يعلمها:

كل ما في هذه المدينة مشتاقٌ إلى رائحتك، شوارعها، مشتاقة إلى خطواتك، حدائقها، مشتاقة إلى نبرات صوتك، تدمع عيناها شوقاً إليك يا حبيبتي، وأنا ككاهن الليل أساهرها، وأواسيها كي تغفو ولو لحظة واحدة.

هذه الليلة الموحشة يا حبيبتي، غمامة سوداء تكتم أنفاس المدينة، تُعكّر عليها هدوءها، وهي تبدو مثل وردة نال منها الذبول في ذروة الربيع، تنهمر الدموع بغزارة من عينيها الزرقاوين.
هذه الليلة الكئيبة يخيّم الحزن على كل ذرة من ذرات مدينتنا، وهي تغرق في البكاء، إنها لا تعرف فن إخفاء حزنها، أو مواراة دموعها, كل شيء يبدو في حالة حداد أبدية, حتى البلابل تغرّد هنا بحزن، والناس يمضون في الطرقات، ويؤس العالم يبدو على وجوههم، حتى الأشجار تتمسَّح بمسحة الحزن، وزقزقة العصافير تخرج ثقيلة كالنحيب.
أتسمعينني جيداً يا حبيبتي، انتظرتُ حتى هذا الوقت لتسمعيني جيداً، بلغتْ الساعةُ الحاديةَ عشر ليلا وأنت ِتعرفين أن الناسَ أغلبهم ناموا وعلى الأغلب فإنهم لا يستخدمون المكالمات الخارجية، إنهم يُصلّون العشاء ويرقدون حتى يستيقظوا فجراً ويذهبوا إلى أعمالهم الشاقة التي لا تنتهي قبل الغروب, إنهم مجاهدو لقمة العيش, وقد نسوا السهر والضحك ومتعة الجلوس والاستضافات, وهم لا يتزاورون فيما بينهم إلاّ في خيم عزاء, أو في حفلات أعراس, والحالتان تكونان بالنسبة إليهم عبارة عن كارثتين, الذهاب إلى عزاء يحتاج إلى أخذ معونة لجبر الخاطر, وأحياناً يجتمعون ليتعاونوا على أخذ كيسٍ من الرز, أو السكر, أو شاة.

أما عندما تحل بطاقة عرس على كاهل أحدهم، فتكون بمثابة كارثة لأنها ستأخذ معها دخل خمسة أيام من العمل الشاق، وهي دعوات متبادلة لأن أي بيت يكون قد أقام حفلة عرس سابقاً ودعا كل مَن له صلة به, والذي لا يحضر الحفل، سيغدو في عزلةٍ ولا أحد يبارك له فرحة, أو يقدِّم له كلمة

تعزية في حال وفاة، وسيبقى منبوذاً في مجتمعه الضيّق، الذي لا يملك ما يسهم به في المناسبات، لا يجد حرجاً من الاستدانة، أو بيع غرض من أغراض بيته ليثبت مساهمته حتى لو أرسلها مع طفلٍ صغيرٍ لأن ما يهم هو إثبات المشاركة وعدم تجاهلها.

أعرف بأنني لا أقول لك شيئاً جديداً لأنها ثلاث سنوات فقط هي التي فصلتك عن هذا الذي أقوله لك, ولكن يهمني أن أعيده إلى ذاكرتك التي قد تكون نسته, أو لا ترغب في ذكره, أجل يا رضوى لا أريدك أن تنسيه لحظة واحدة وأنت في ذاك المجتمع المنفتح الذي أبادلك احترامه على هذا الانفتاح وسعة الحرية الإنسانية التي يتمتع بها، وأحب أن أعيد عليك ما أقوله دوماً: أننا لو زرعنا وردة واحدة في تربتنا وانتظرناها لتنبت، أفضل من دخولنا إلى حدائق الورود في تربة غربة لأننا لن نكون هناك أكثر من ضيوف وتبقى تلا حقنا نظرات تُذكّرنا بأننا خارج بيوتنا, وأصبحنا نشكل عبئاً عليهم كضيوف ثقلاء.
أظنك أشعلت سيجارة جديد ة من عقب منتهية, أعرف جيداً بأنك تتمتعين بالتدخين ولذلك لم أستطع قول شيء سوى أنني خائف من هذه الكثرة, لأن ثلاث علب في اليوم مغامرة على فتاة في العشرين من عمرها وبالطبع سأكون سعيداً لو اكتفيت بعلبة واحدة.

أعرف بأنك تحبين الحياة وذهابك إلى هناك هو بالأصل لاكتشاف ملذّاتها, وأنك مولعة بالانفتاح والبساطة ولهذا وافقتُ على ذهابك حتى تنظري إلى الحياة جيداً، أكثر من موافقتي على تكملة دراستك لأن هذه المسألة لا تعنيني كثيراً بقدر ما يعنيني أن تمتلئي بالحياة وتعودي ناضجة مؤهلة لفتح بيت والتعامل مع زوج وتربية أولاد, وأظن أن راضي قدم لك الكثير في هذه المسألة وكذلك زوجته التي تقولين بأنها تحبك كثيراً وساعدتك في تعلّم اللغة الإنكليزية بشكل جيد.

حاولي أن تدخلي عالمها وتتعرَّفي بصديقاتها، التعامل عن قرب مع الاحتكاك يوفّر عليك الكثير من الجهد حتى تتعرَّفي بإيقاع تركيبة ذاك المجتمع.
رضوى بالنسبة لفكرتك فقد درستها جيداً, وأظنني لن أستطيع التخلّي عن هذا المكان الذي أحبه, يمكن أن أوافق على السفر والزواج هناك وقضاء ثلاثة شهور, لكن سنعود معاً أو أعود لوحدي إذا أصررتِ على البقاء, لا يا حبيبتي لست تعيساً هنا, إنني سعيد لأن لي حبيبة, التعيس هو ذاك الذي لاحبيبة لديه و ذاك الذي لا يعيش على أمل.

في الصيف أركب دراجتي النارية وأذهب إلـى النهر مساءً لأشاهد هناك غروب الشمس وهي ذاهبة إليك لأنني أعرف بأنك تكونين يقظة بانتظار استقبالها وهي تحمل نظراتي إليك، وهنا أغني الأغاني التي كنت تغنينها لي, أمتلئ بالأمل والحياة وأنا أتذكَّر كل كلمة قلناها معاً, وفي ليالي الشتاء الطويلة أستمع إلى الأغاني التي تركتيها بصوتك على أشرطة الكاسيت, أجل يارضوى: أم كلثوم وعبد الحليم , أستمع (لسه فاكر) و(في يوم في شهر في سنة) هذه الأغنية التي تحبين الاستماع إليها وهي مصورة.
وأعود أقول لك: ياه ما أتى بك لأم كلثوم وعبد الحليم وجيلك لايعرفهما؟! تقولين بأنك أكبر من عمرك هذا، لا تنتمين إلى جيلك.
وكم تكون ليلة حافلة عندما أعود من العمل فأراك تاركة كلمات شوق ملتهبة في جهاز(السكرتيرة) وبطبيعة الحال فان صوتك المدهش هو الذي يرد عليك وعلى كل متصل: (الأستاذ ليس في المنزل يرجى ترك رسالة صوتية وشكراً). هذا الصوت الذي يسحرني والذي غالباً عندما أكون في مكان يتوفَّر فيه هاتف أجري اتصالاً ببيتي لأسمع صوتك فقط ثم أترك كلمة واحدة أقول فيها: (أحبك)
حتى الآن عندما يُرن جرس الباب أنتفض هاتفاً (رضوى) متوقعا أنك ستفاجئينني كعادتك، وأنك ستكونين حاملة حلاوة بالجبن وحلويات وعلبة

بوظة, تغيّرين ثيابك، ترتدين بيجامتي الحمراء وكنزتي النصف كم، ياه كم تحملان رائحتك بقوة وكم أصبحا قطعتين نفيستين في البيت، وبين فترة وأخرى أستنشق رائحة أرق وأعذب امرأة في العالم منهما، رائحة أحب مخلوق إلي, ياه لن تتصوري كم ذرفت الدموع عليهما, وساعتك، يا لتلك الساعة التي نسيتها آخر مرة لدي, تركتها في ذات المكان ولكن وضعت تحتها صفحة بيضاء, وكانت قد سقطت من شعرك حبسة سوداء صغيرة وضعتها إلى جانب الساعة, وكتبت على صفحة بخط عريض:

رضـــــــو - حبيبتي - ى - حبي لك لن ينتهي.

وهي قبالتي لأقرأها كل لحظة وأقبّل الساعة والحبسة في اليوم عشرات المرات وأشم رائحتك منهما.

أجل يارضوى بالحب يستطيع الإنسان أن يكون إنساناً ويمارس كل أشكال الإنسانية، عندما يطرق محتاج بابي، فإنني أعطيه أكثر مما كنت أعطيه قبل أن أحبك, وعندما أريد فعل شيء يؤذيني، فإنني أتردَّد لأن طاقة الحب تجاهك تمنعني، ولا أظن أن اليأس يمكن له أن يقربني وأنا أحبك كل هذا الحب.

أتذكرين يا رضوى يوم زرتني في ذاك اليوم الكئيب وكان مزاجي غائماً بدون سبب واضح وكنتُ في منتهى التعاسة، يومها قلتِ لي بأنني أجرحك بهذه الكآبة، فإن أرد ت ألّا أجرحك علي أن أضحك ولتذهب كآبة العالم كلها إلـى الجحيم, كنت تقولين: إنني قوية بك, وعندما أراك ضعيفاً فان كياني كله يتزلزل, وأحس أن الأرض تنسحب من تحت قدمي.

الآن لي أصدقاء أيضاً يحزنون عندما يروننني حزيناً, ولذلك فإنني أمام تذكّر كل هؤلاء أبدو أقل حزناً حتى وأنا بمفردي؛ منذ أيام قليلة جاءني صديق عزيز كان على خلاف مع زوجته دام ثلاثة شهور, وكان في أبأس أيام عمره ويشعر بأنه فقد شيئاً ثميناً, لكنه أراد أن يتمهَّل حتى يطلب منها الصلح, وفي الأيام الأخيرة بدا لي بأنه يخفي في صدره قنبلة موقوتة, كان

دائم الاحتقان والاضطراب ولا يثبت في مكان نصف ساعة, جاءني فيما بعد مشرقاً يضيء كبدر.

قال بأن زوجته عادت إليه كما يعود دفء إلى جسد قبل أن يجمد بلحظات وفي الليلة الأولى التي احتضنها، انتابه شعور بأن تلك الحالة الكئيبة تركته إلى غير رجعة , قال بأنها امتصت كل احتقانه وجعلته يشعر كما أنه لو كان طفلاً.

جاء يروي لي هذا الاكتشاف الجديد، حتى أنه قال بأن حضن المرأة بعد فراق، لهو أكثر فاعلية من أي دواء لأقسى مرض في العالم, وقال بأنه كلما يشعر بحزن، أو اضطراب يذهب إلى عيادة حضن زوجته ويمضي ساعتين من الاسترخاء حتى ينهض كحصان ويغتسل فيشعر برشاقة وكأن الحزن لن يقربه مرة أخرى, وقال بأنه حتى عندما تعتريه أحياناً مشاعر خوف من الموت فإنه يدخل حضن زوجته فلا يتذكر إلّا بأن الحياة رائعة وعليه أن يكتشف روعتها.

هكذا يا رضوى فإن الإنسان لا يكون قوياً إلّا بالإنسان، ولا يكون ضعيفاً إلّا ببعده عن الإنسان، ها هي دموع الشوق عادت تنحدر وأنا أتذكَّر لمساتك الأخيرة وأنت تودعينني في الليلة الأخيرة، كل شيء بقي كما هو يحافظ على تلك اللمسات، ورغم كل هذه الوحدة التي أعيشها فإنني أواجه اليأس وأرسم أملاً بأن الأيام القادمة ستكون مليئة بحضورك.

دوماً اليأس يصيب أولئك الناس الذين لا قدرة لديهم على المحبة والذوبان في تلك المحبة, أجل إنني أذوب في حبك ولكنه ذوبان رائع لأنه في سبيل من أحب, ليس هناك أشقى من ذاك الرجل الذي لا يجد امرأة يحبها، أجل أيتها المرأة العفيفة الزكية وأنا أسميك امرأة القرن لأن كل قرن لا يجود إلا بامرأة واحدة مثلك؛ لا تخافي فإنني لن أغلق وأنا أعرف بأنني لا أملك ما سأسدد وأنهم سيفصلون هاتفي, لكن ليحدث ذلك وليحدث أي شيء في سبيلك

لأنني ظمآن للحديث معك ودقائق قليلة لن تطفئ ظمئي, لتكن ساعات, لتكن ليلة كاملة من العمر ألا يحق لي أن أتحدَّث مع حبيبتي ليلة واحدة في العمر وهي على كل ذاك البعد, ولأكن مضراً بالاقتصاد الوطني.
أشياء كثيرة أود قولها لك.. أشياء كثيرة متراكمة لن أستطيع أن أغفو قبل أن أقولها. انتظري قليلا سأضع بعض الموسيقى وأحضر كأسا من الشراب وأظنك ستشعلين سيجارة جديدة وترشفين آخر ما تبقى من قعر فنجان القهوة الخالية من السكر.

أحيانا أشعر بأنني لن أحتمل حجم الشوق إليك وأريد أن أركب أول طائرة لأفاجئك بحضوري فأطبع قبلة على خدك وأعود, ياه كم يسحرني ركوب الطائرة من جديد, ولكن هذه المرة سأكون متجها إليك.
تقولين بأنك كنت على وشك الذهاب إلى إحدى صديقاتكِ في البرج الذي تلقى هجمة الطائرة, ولكن راضي كان قد دعا أصدقاءه إلى حفلة خاصة بمناسبة حمل زوجته مما جعلك تؤجلين زيارتها. لا أعرف لماذا يصر محبو الدماء أن يدفع الأبرياء دوماً أثمان نزعاتهم, أجل أنقذتك الظروف من كارثة كتلك, ولكن هذا لا يخفف من الحزن الذي أصابني وأنا أشاهد الكارثة في التلفاز، يومها كنت جالساً في البيت أتأمَّل الكلمات التي كتبتها لك، وساعتك إلى جانب حبسة الشعر أمامي، اتصل بي صديق وقال: هل تشاهد؟
قلت له: أي شـــــيء؟
قال: افتح التلفاز وسترى.
كانت مناظر مؤلمة والقنوات تعيد مشاهد الهجمات عشرات المرات وتعلن عن أسماء آلاف الضحايا.
ظننت بأن الحرب لن تنتهي وأنها الشرارة الأولى لحرب كبرى لن يعرف أحد نهايتها، تحوَّل العالم إلى كتلة مظلمة أمامي ولم أترك البيت طوال أسبوع والتلفاز لم ينطفئ وكانت اتصالاتي بك دوماً تفشل بسبب الزحمة على الخطوط التي كانت مشغولة طوال الوقت؛ في تلك اللحظات المأساوية كان

كل شيء متوقعاً وكل بلد من بلداننا كان يمكن أن يكون مستهدفاً لضربة مباغتة كبرى, ولكنني عندما نجحت أخيراً في الاتصال بك، شعرت ببعض طمأنينة رغم المأساة التي أحاطت بك ونظرات الإدانة التي تحمّلك مسؤولية ما حدث حتى من زوجة أخيك, ويبدو أن الإنسان مهما تقدَّم فان غريزة الثأر تبقى تسري في دمـه.

أجل يا رضوى انتظرتُ رد ة الفعل التي توقعتها ستكون أخف من ذلك, أوعلى الأقل ستكون بعيدة عن الأبرياء ولكنها جاءت بالمثل ووقعت وسط الأبرياء الذين لا يد لهم في الأمر تماماً كالأبرياء الذين كانوا في أعمالهم هناك ولا يد لهم في أي خلاف.

الضربة لم تكن على الكبار, ولذلك فان الرد أيضاً لم يكن على الكبار الذين سَلِموا, كان الرد بالمثل وهذا أثبت لي أن الإنسان مازال دائراً في دائرة شهوة الثأر والانتقام حتى وهو يدَّعي الحضارة وهذا ذاته حدث سنة 1991 عندما بدأ الهجوم على المدنيين الآمنين في بيوتهم, وجاء الرد كذلك محافظاً على سلامة الكبار.

أجل يا رضوى الفقراء دوماً هم الأبطال الذين يدفعون الضرائب الكبرى عندما يخطئ الكبار, كل الحروب والمجازر الكبرى كانت على العمال والعشاق ومحبي الحياة ومجاهدي لقمة العيش, وحتى في الحروب الخاسرة، فانهم يجرّون العشاق والعمال ومحتقري الحروب وسفك الدماء إلى تلك الدائرة الدموية المرعبة التي أرفضها بكل أشكالها وحقدها ولا إنسانيتها لأن الإنسان سيكون قد خرج عن إنسانيته تماماً في اللحظة التي يصوّب فيها طلقة لأخيه, ودوماً عندما أرى مجموعتين تتقابلان للقتال فإنني أتذكر طبيعة الكواسر والوحوش في الغابات التي تكون على الأغلب أقل عداء من هؤلاء الذين يرتدون الثياب المرعبة التي تجعلهم أكثر قرباً من أشكال النمور وليس هناك من هو أدنى إنسانية من ذاك الذي يلقي الحرائق من الفضاء على بيوت آمنة فيحرق حتى لعب الأطفال ويغتال الأزواج في أحضان زوجاتهم,

والحالة الحضارية الإنسانية تقول بان عليه أن يحمل لهم الموسيقى والكتب والألعاب والهدايا.

أجل يا رضوى انهم يفتقدون الحب, انهم يعيشون حالة عداء مع الإنسان الذي ينتمون إليه, ولا أظن أن الخلاف هو على بقعة أرض أو على ثروة لأن الأرض تتسع للجميع وثرواتها تقضي حاجة الجميع وكل شخص في العالم لديه الإمكانات العضلية والعقلية ليكتسب قوت يومه إذا تركه الكبار بحال سبيله وتجنَّبوا التدخل في حياته.
أجل يا رضوى وهو أمر طبيعي أن تظهر ردّات فعل مقابلة بين حين وحين من هؤلاء الفقراء الذين ينتقمون بأفعال ضمن مجتمعاتهم لا تقل عنفاً عندما لا تجدي كل مظاهر الاحتجاج السلمي، فينظر الكبار إلى هؤلاء على أنهم خونة ومتآمرين على مجتمعاتهم.
في الواقع فإن هؤلاء الكبار يفسحون أمامهم أبواب الحرية الاجتماعية على حتى يُفجّروا مكنونا تهم في تلك العوالم الصاخبة، وهذا يحدث عندنا ولكن دون إعلانه على الملأ، ورغم ذلك فإن الحيلة لاتسري على الجميع فيخرج فرد ليعلن عن حالة التذمّر العامة بارتكابه عملاً عنيفاً.
الناس في كل بقاع العالم يحبون بعضهم البعض ويتآلفون مع بعضهم البعض ولكن يأتي مَن يزرع مشاعر الفرقة والعداء في نفوس هؤلاء.
دوماً يا رضوى الإنسان بخير, ولكن تأتي السياسة لتفسد عليه حياته, كل شيء يكون آمناً إلى أن تحل السياسة فتزحزح الأمن وتشعل فتيل الحقد في أناس آمنين.
تدخل السياسة إلى الدين فتفسده، تدخل الفن فتفسده، تدخل الأدب فتفسده، تدخل القانون فتفسده، تدخل بين أخوة فتحيلهم أعداء في ليلة.
لا توجد حروب رابحة على مدى التاريخ البشري مادامت تسبَّبَت في قتل طفل بريء واحد، وأي انتصار ذاك الذي يُبنى على جماجم أبرياء، أي مجد هذا وقد انغمس في دموع وويلات.

يحقق الإنسان انتصاراً ومجداً علـى قدر قوة التسامح التي يمارسها، لا يكون بطلاً إلا وهو يسجّل مواقف التسامح العظمى في لحظات الانتقام العظمى.

ما يهمنا بالدرجة الأولـى يا رضوى هو واقعنا لأنه الأقرب إلينا ونحن كذلك الأقرب إليه ونستطيع أن نبدي الآراء فيه وعنه وكذلك نستطيع أن نقوم بعملية تمثيله أكثر من الذين يعيشون خارج هذا الواقع, وتعلمين أن الواقع الطبيعي يفرز مجتمعاً طبيعياً, ومها سعى الإنسان فإنه يلبث مغتسلاً بآثار بيئته ويعجز أن يمحو عن روحه آثار الطفولة.
الإنسان هو ابن بيته أولا, ومن ثم ابن البلد الذي ولد فيه, ومن ثم ابن الأمة التي ينتمي إليها, ومن ثم هو ابن هذا العالم, وهو ابن الأرض التي يعيش عليها وليس ابن السماء لأنه لا يستطيع أن يقيم في السماء, وهو يحزن عندما يموت لا لأنه يخسر السماء, بل لأنه يخسر الأرض رغم قناعته بأنه صاعد إلى السماء, فلا شيء يعوضه عن خسارته للأرض بمفهومه، وللدلالة علـى ذلك فإن الأقرباء يفتحون خيم العزاء ويرتدي الأقربون ثياب الحداد, يتجنَّبون أي مظهر من مظاهر الأفراح ويعبّرون عن استيائهم وحزنهم علـى هذا الفقيد الذي خسر الأرض ومَن عليها.

الإنسان هو ابن الإنسان, لا يوجد إنسان واحد زعم بأنه ليس ابن الإنسان وعلـى هذا الواقع، فان ما يصيب الإنسان في أي مكان، فإنه يصيب الإنسان في كل مكان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة, وهكذا لا يكون الإنسان طبيعياً إلاّ إذا سعى لتوفير الحالة الطبيعية للإنسان بصفة عامة.
هل تسمعينني جيداً يا رضوى, هذا الكلام يعني حتى قطرة الماء التي نشربها, ونسمة الهواء التي نتنسمها أينما كان موقعنا من سطح هذه البسيطة, هذه هي القضية المأساوية الكبرى التي نعيشها وقد كلّفتنا كثيراً وماتزال تكلفنا, ولا يعنينا الوطن, لا تعنينا السياسة لا يعنينا الاقتصاد, ولكن يعنينا الإنسان الذي بات يرضخ للأمر الواقع مرغماً فينقلب هذا التسليم القسري

علـى تفاصيل حياته حتى يغدو كائناً لا طبيعياً في تصرفاته, وهذه هي الخسارة الكبرى لأنها خسارة الإنسان، حتى لو ظننا بأننا نعيش في أوطان نالت استقلالها, فأين يكمن الوطن إذا ماتت فيه روح الإنسان وانطفأ صوته.

ما يهم بالدرجة الأولى وقبل فكرة وجود أي موقع جغرافي هو تحرير الإنسان ودفعه لممارسة حريته ورفع صوته, وحيثما يوجد إنسان متحرر مرفوع الصوت يكمن وطن متحرر حتى إن لم يكن ثمة وطن ولا راية خفَّاقة, وهذا الإنسان ذاته سيكون غيوراً علـى أي بقعة أرض سواء كان يعيش عليها أو لا يعيش عليها ويكون حريصاً علـى حياة الآخرين سواء كانوا من أبناء جلدته أو غيرهم.
ولذلك فان مظاهر الاحتفالات بأيام الاستقلال هي مظاهر مبالغ فيها والأعلام تكون مرفوعة أكثر مما هي لأن لحظات الاستمتاع بالفرح ميتة في عمق الإنسان وعَلَمه منكس في داخله, هذا الإنسان الذي مازال يأمل في أن ينام نوماً طبيعياً, ويستيقظ استيقاظاً طبيعياً, ويتحدث بصوت طبيعي, ويمشي مشياً طبيعياً في شوارع العالم الذي يحب.

هل خرجتُ من الموضوع الذي أجريت من أجله هذا الاتصال معك, لكنك هناك وكل ما يحدث فإنه يعنيني حتى أنني بعد أن رأيتك على قناة ال سي إن إن بعد الهجمات وأنت تدلين برأيك في ذاك البرنامج الذي كان خصيصاً مع المقيمين، بدت تلك القناة تجذبني وعندما تتحدثين الإنجليزية فان اللغة ذاتها تسحرني وأحياناً فقط أستمع اللغة من تلك القناة وأستمتع بها ورغم جهلي بها فقد انتسبت إلى دورات للمبتدئين وأخذت بعض الكتب والأشرطة التي تيسر تعلم هذه اللغة الثرية.

الفصل الثالـث

رضوى رغم كل مشاعر المأساة، أظن بأن الأمور ستكون أقل ألماً في الفترة القادمة وقد تلقّى الجميع درساً وكأننا كنا بحاجة إلى هذه الصفعات لنستيقظ من تلك الغفوة الأخوية الباردة التي أتتنا على غفلة؛ بالنسبة للمدنيين فإن مشاعر التكاتف المدني سوف تتضاعف ولا أظن أن ذلك سيترك أثراً على علاقة راضي بزوجته خاصة يجمعهما الآن أربعة أطفال وعمر زواجهما عشر سنوات، وهو حاصل على الجنسية وليس بوسع أحد أن يسبّب له إزعاجاً في حياته وعمله وعلاقاته, وهو مع زوجته وأولاده يشكّلون قوة هناك وعليه أن يبقى من أجل مستقبل أولاده وأيضاً من أجل أن يستضيفنا عندما نزوره.

أظن بأن الحادث مازال ساخناً وردّات الفعل سوف تهدأ بعد أن دفع شعبٌ بأكمله الثمن رغم أنني علمتُ أن البعض شكر الله على الأحداث لأنها أراحته من قمع النظام السابق في أفغانستان، وأنه الآن أصبح بإمكانه أن يمارس حياته كجميع سكان الأرض ويسمع شيئاً من الموسيقى, ولكن كان يمكن أن يحدث هذا دون كل هذه الويلات لو نظروا إلى بعضهم البعض نظرات محبة واستمعوا إلى شيء من نداء الإنسانية الذي يفجر حالات التكاتف الإنساني في الأعماق.
مشكلة الحُكّام أنهم لا يُفجّرون جنونهم في الحب والموسيقى والقراءة والرقص والبساطة، مشكلتهم الظن بأنهم آلهة عليها ألاّ تقوم بأفعال بشرية, فهي تمتلك أن تعاقب وتزلزل وتقصف وتمارس الكوميديا الإلهية وتهب وتمنع وترفع الناس في المواقع وتجرّد مَن تشاء، لكنهم بذات الوقت لا ينسون

للحظة بأنهم ليسوا آلهة لأن شبح الموت يلبث يطاردهم ويفزعهم أكثر من أي كائنات أخرى فيعيشون ذروة الازدواجية ولا يملكون إلا أن يُعبّروا عنها بهذا القصف على أكثر المواقع سلماً وأمناً, فأمّا أن يكون الإنسان إنساناً أو يكون وحشاً فتّاكاً لأنه لن يكون إلهاً.

إنني أتابع كل شيء في مختلف الوسائل التي يمكن التواصل معها، أنت تعلمين أنني مستاء من حديث كهذا لكنه أصبح خبز يومنا, وهذه هي المشكلة الكبرى عندما يُفرض علينا حديث نتحاشاه بكل إمكاناتنا.
إنني مؤمن بأن المستقبل سوف يكون للحب وجزء من هذا الحب هو الذي دفعني لإجراء هذه المكالمة الطويلة مع تلك البلاد البعيدة التي يعيش فيها شعب رائع كما تقولين لي دائماً, شعب مهووس بالتلاقح والانفتاح وفعل الخير مع الآخرين، فعل كل شيء من أجل أن يمارس شفافيته بأرقى صورها, وقد تشوَّقتُ إلى صديقاتك هناك, ودوماً أتخيَّل الأجواء التي تصورينها لي في الأماكن العامة التي ترتادينها معهن, وعموماً فإنك لا تختلفين عنهن كثيراً في نَمَطِ حياتك حتى وأنت هنا, لأن الانفتاح على الحياة لا يقتصر على شعب أو عرق دون غيره، لكنك تحافظين على الروح الشرقية في أعماقك, هذه الروح التي تشرق بنزعة الانفتاح والمعرفة أكثر مما تظلم بنزعة الانغلاق والجهل.
حديثك عن صديقتك الجديدة /كيت/ كان رائعاً في المرة الماضية وقد لبثتُ أفكر بتلك الصديقة النقية ووددتُ لو التقيتها, ولا أدري لماذا تخيلتها كربيع كامل, فهي تحب شخصاً وتسهر معه إلى آخر الليل, تدخن وتشرب وتأكل وترقص وترتدي ثياباً جديدة وكل سنة يزوران بلداً لمدة شهر ويخططان لزيارة كل مدن العالم ومن ثم يتزوجا, إضافة أنها تعمل وتجيد طهو الطعام بشكل طيب، وقرأتْ روائع الروايات العالمية وتجيد إلى جانب لغتها اللغتين الفرنسية والعربية, وهي متدينة لاتقدم على خطوة إلاّ وتنادي الله ليكون معها.

كل إنسان يبني علاقة خاصة بينه وبين ربه وعلى هذه العلاقة يمارس تواصله مع الله.
مالا يبعث على التفاؤل هو محاولة البعض لإسقاط تعريف ومفهوم قاطع وعام عن الله الذي هو أوسع وأكبر وأشمل من أن يأتي فرد ليعلن هذا التعريف, وبناء على هذا التعريف يوزّع الناس على الجنة وعلى الجحيم, ويأتي ليوزّع الأدوار في أن يقتل كائناً من لسان آخر أو من لون آخر.
لا أعرف كيف يمكن لكائنٍ أن يطلق النار على كائنٍ آخر يبتهل إلى الله سواء كان قابعاً في كنيس أو كنيسة أو جامع، أو في مغارة، يعجبني إعجابك بهذه الصديقة المدهشة لأن الإنسان كما تقول لك عليه أن يستثمر كل ساعة في حياته ليتعلم فيها شيئاً جديداً أو يرى جديداً وهو أسمى من أن يمر عليه يوم لا يتعلم فيه مالم يكن يعلم في سابقه, ولا يُقدّم للآخرين شيئاً يحمل طاقة جديدة من روحه.

ثمة أناس يا رضوى يعيشون على أمل أن يعيشوا ويكتشفوا الحياة, وأناس يعيشون على أمل أن يموتوا وتنطفئ فيهم شعلة الحياة, أناس ينتظرون يوماً جديداً ليُقدّموا مسرّة لغيرهم, وآخرون ينتظرون يوماً جديداً ليُسبّبوا ألماً لغيرهم.
ولكن توقّفتُ كثيراً أمام القصة التي رَوَتها لك صديقتك /كيت/ عن نفسها عندما وقَعَت في حب شخصٍ من النظرة الأولى ورَفَضَت منذ تلك النظرة أن تلتقي خطيبها حتى لا تخدعه وهي تقول لك: كل ما كان يقلقني يا رضوى هو كيف سأرتمي في حضنه وقد كنت في حضن من أحب منذ قليل, أدركت بأنني سأكون تافهة بنظري ولذلك رفضت أن أكون تلك المرأة التافهة وتشجعت في نهاية الأمر إلى مصارحته بأنه أكبر من أن أخدعه, وذكرياتي الرائعة لا تسمح لي بذلك، بل إنني لا أجرؤ أن أكرر له كلمة: أحبك يا وليم.
وقد خفتت نيران حبه في أعماقي, كنت دوماً أتساءل: أي امرأة تافهة هي تلك التي تستطيع أن تخادع رجلين في آن معاً, وهل حقاً أنها لا تعاني آثار

الازدواجية، وعندها أقول بأن الشعور بإهانة الذات لهو أعلى من أي شعور سلبي آخر وأن هذه المرأة بكل المقاييس ليست طبيعية ولذلك تبدر منها أفعال غير طبيعية.

استطاع وليم أن يستوعب الأمر، بل راح يُقبّل يدي قائلاً: أي امرأة نبيلة أنت يا كيت, أنا حزين على خسارة امرأة رائعة بحجمك وهي خسارة قد لا تعوض ولكنها الحقيقة المرة التي علينا أن نؤمن بها رغم مرارتها.
ومضى شهران حتى اكتشفت بأنني كنت مندفعة ومتسرعة في مشاعري وقراري وأن رجلاً مثل وليم لن يُعَوَّض، ولا أخفيك يا رضوى أن استيعابه لمصارحتي زادني إعجاباً بشهامته وكذلك انسحابه البسيط من حياتي رغم أنه بات لايطيق الحياة ويدمن على الكحول في محاولة لنسياني, فذهبتُ إليه ذات ليلة في إحدى البارات وكان جالساً مع أصدقائه فقلت: وليم أرجوك لنخرج الآن.
نهض وهو ثمل, وعرفت في تلك اللحظة كم كنت قاسية عليه, في الخارج جلسنا في ركن مظلم نبكي ونتحدث حتى الصباح.

إنها الخيانة يا رضوى، الخيانة التي يرفضها الإنسان بكل قوته, الخيانة التي تجعل الإنسان في الدرك الأسفل من الحياة, وتُجَرّده من كل لحظة كبرياء, كل ذرة كبرياء في الإنسان تعلن موتها في لحظات الخيانة، ويا له من كائن تعس ذاك الذي يعيش دون مشاعر الكرامة والافتخار والكبرياء, إن موت الإنسان في نظر نفسه لهو أقسى عليه من موته في أنظار الآخرين.
هذه المواقف الرائعة من الحياة تعلمك الكثير وتتعرفين على الإنسان بشكل أوسع فهو كلما يُمنح الحرية يبلغ مرتبة عليا من الصدق, قد نجد امرأة أخرى تخشى أن تصارح خطيبها لأنه لن يستوعب هذه الحقيقة فتعيش المرأة حالة من الازدواجية أو تضطر لبناء علاقة مع رجلَين في آن معاً حتى تنتهي بها

هذه الازدواجية إلى موت مشاعر الحب في أعماقها وقد تفشل بعد ذلك حتى أن تكون أختاً حقيقية، أو أماً، أو خالة، أوعمة، أو حتى صديقة.

هذه هي مشكلة المرأة هنا فهي لا تملك شيئاً، أو أنها تملك شيئاً واحداً مثل العمل, أو صناعة طعام طيب, أو الثقافة, أو الانفتاح على العالم, أو الطبع الاجتماعي, أو تكون متدينة فحسب, أو من أسرة عريقة, أو تكون ثرية, أو تتمتع بجمال.

هنا سيبحث الرجل عن الجوانب المفقودة في امرأة أخرى, تقولين بأن صديقتك تسعى لكي تتمتع بكل الصفات الرائعة التي تجعلها تمتلئ بالحياة وتكون كنزاً حقيقياً لزوجها وأولادها وبيتها وتكون رجلاً حينما ينبغي أن تكون رجلاً وتكون امرأة حينما ينبغي أن تكون امرأة, وكذلك يمكن لها أن تكون طفلة, وأن تكون عجوزاً حنواء, ويمكن لها أن تتحدَّث أمام طبيب في الطب, وأمام كاتب في الأدب, وأمام سياسي في السياسة, وأمام رجل دين في الدين، وأمام رجل اقتصاد في الاقتصاد, وأمام مرب في التربية.
مسؤولية المرأة هي أعلى من مسؤولية الرجل لأنها ربة بيت ومربية وغارسة بذور الأخلاق في أولادها وكذلك في زوجها, والرجل الذي يحب زوجته فانه يتطبَّع بطبعها.

بالنسبة لي فهنا فرصة اكتشاف الحياة نادرة ولكن يمكن للمُصر أن يعيش تفاصيل الحياة ويكتشف سعادتها وبؤسها، يكتشف ضحكاتها ودموعها, لي بعض الأصدقاء المنفتحين على العالم نلتقي في أوقات متقاربة ونتبادل مثل هذه الأفكار, وهذا هو العزاء فأن أرى أصدقاء كما تقولين أنت /من طينتي/ فذلك يعني أن العالم في هذا الجزء المنسي منه مازال بخير.

إننا نزرع بذور الزهور ولا نيأس رغم أن الأقدام التي تقتلعها هي كثيرة وهي أكثر عدداً وقوة منا, أصبحنا مجموعة من أصدقاء وصديقات تجمعنا هذه الأفكار وعددنا في تزايد، دوماً نردّد بأننا لا نريد شيئاً سوى أن نكتشف الحياة ونتصدَّى لأولئك الذين ينصبون أنفسهم أوصياء على الظلامية ويحلمون بيوم يتمكنوا فيه من حجب حتى الشمس علينا لأنها قد تدفعنا لرؤية شيء جديد, ولو تمكن البعض من ذلك لما تردَّد طرفة عين.

إنني قوي بحبك يا رضوى، قوي وأنا أستمع الأغاني التي كنا نسمعها معاً /أغانينا/ وأنا كل يوم أنظر إلى ساعتك التي أظن أن نسيانها كان مرتباً له سواء من قِبَلك أو من قِبَل جهة مجهولة حتى أنظر إليها كل يوم فأعرف أن زمن اللقاء بك اقترب يوماً جديداً, إنها الساعة التي تلبث تتقدَّم بالزمن وتشير إلى أن الأيام الجديدة دوماً قادمة, أيام اللقاء الثرية التي ستجمعنا بعد كل هذا الانتظار.

هاهي الحياة تشرق مرة أخرى وتثبت بأنها وليدة للتو, وها نحن نفتح عيوننا لأول مرة على شيء جديد لم نألفه من قبل, إننا نعيش كل ذرات هذا العالم الجديد ونستمتع حتى بآلامه, وقد تعلَّقنا بذرات المكان, نستمتع بسماع الموسيقى التي ترفعنا إلى السماء, ونتعلق حتى بلحظات الألم مادامت تنبض بالحياة.
أجل فإن الحياة هي أكثر من مدهشة ونحن نستعد للمواجهة ما دامت الحياة تنبض فينا, مَن يحب كائناً سحرياً يمكن له أن يُضحّي ويحتمل كل شيء في سبيل أن يلتقيه كل صباح ولو للحظة واحدة حتى لو كانت حلماً.

إن مجرد الانتظار لصباح جديد يحمل وجه مَن نحب يمد بطاقة عجيبة بالمواجهة, يمد بالتحدي في سبيل أن نعيش من أجل مَن نحب, علينا أن نرفع رايات الحب قبل كل الرايات لأن رايات الحب هي التي سوف تجعلنا

نلتقي رغم كل المسافات والحواجز, رايات الحب تحمل إلينا لغة الموسيقى والمطر والشمس.

ليس من سبيل آخر غير الحب الذي ينبثق من الجمال, سوف تبقى الحياة مشرقة تقدم الكائنات الجميلة التي تكتشف جماليتها وتعيش تلك الجمالية بكل تفاصيلها، تبقى عظمة الحياة في مدى قدرتها على خلق كائنات جميلة يمكن لها أن تكتشف المزيد من الحب.
بَقيَت الحياة من أجل هؤلاء الذين يحبونها وليس من أجل الذين يحيكون المؤامرات ضدها, بَقَيت حتى الآن من أجل العشاق وليس من أجل الذين يلوثون حتى الهواء.

ماهو حرائقي هنا وأنت على كل ذاك البعد المرعب مني هو لحظات الشوق الفيضانية فتنفجر الدموع من عيني في إشارة واضحة إلى ضعفي لفعل شيء يخفف من ألم الشوق, ولكنه ألم رقيق غائص في نهر دموع من الشفافية, إنه ألم رفيق بي وهو ليس شريراً ولا قاسياً, بل يزيدني رقة وعذوبة لأنه ألم حبك يا رضوى.

الحب شعور سحري يُطهِّر الإنسان من كل النزعات السلبية حتى تلك التي اكتسبها وراثياً ولا يد له بها, يأتي الحب ليفوّ ح روحه وجسده بروائح منعشة فلا تشع من عينيه إلا نظرات محبة، ولا تصدر من فيه إلا عبارات عذبة مطهَّرة بعذوبة مَن يُحب, وما عساني أن أفعل وقلبي واقع في حب امرأة حرائقية بحجمك يارضوى, امرأة تسيطر على كل حاسة مكتشفة وغير مكتشفة.

أجل حتى الجمال يأتيني من كثر الشوق المتفجّر إليك، فأنسام حبك تأتيني من بعيد وتملأني جمالاً، حتى الأغاني تغدو أجمل وأنا أحبك, حتى الطعام

يكون أطعم, والليل يكون أبهى، والنهار يكون أكثر ضوءاً، والثياب الجديدة تكون أكثر زهواً, وخطواتي في الطرقات تكون أكثر ثقة, وتحمّلي لمشاعر الألم يكون أقوى, وهذه الوحدة التي أعيشها تمسي عالماً حافلاً بنبرات صوتك.

أراك في المطبخ وأنت تطهين البطاطا باللحم, وأنت تجلين الأواني، وأنا أقف خلفك لأتأمل هذه الكائنة البديعة التي شاء الله أن يبدعها بكل هذه الجمالية والعذوبة الروحية، وأنت تفتحين علبة دخان جديدة وتقولين بأنها عالم جديد, أراك تبكين من الحب وأنت ترتعشين كعصفورة مبللة بمطر الربيع في حضني, مازال ذاك القلق يستبد بي ذاك القلق الذي لم أبح به ويدك بيدي, أجل يا رضوى كل قلقي يكمن في مفاجأة غير متوقعة, ولذلك رغبتي فائرة في أن نترك كائناً منك ومني, كائناً يجمع بينك وبيني فيكون حضوراً وواقعاً عند وقوع كارثة لا نتوقعها, فيكون هو رضوى وهو الحب الذي يبقى ويواصل البقاء بكل هذه القوة.
كم يتفجَّر حنيني إلى ذاك الطفل الاستثنائي الذي ينبثق كالفجر من ثنايا هذا الحب لكنها مشاعر خفية أبثها لأول مرة, أو لأقل أعترف بها لأول مرة لي و لك.
تبقى المشاعر الحقيقية هي التي تحمل المسرة للقلب والروح،
إنني أعيش كل كلمة أقولها لك كما أنني أعيش كل مقطع موسيقي سمعناه معاً ولا أظن أن هناك ما يسر القلب والروح معاً سوى لحظات الحقيقة الكبرى.

في الأسبوع الفائت مررتُ صباحاً بالقرب من بيتك، ويا لها من مفاجأة سارة غير متوقعة، مفاجأة زلزلت كياني، وقعتْ نظراتي بغتة علـى امرأة كدتُ أصرخ: رضـــوى..

من كثر شبهها الشديد بك, يا لذاك الشبه العجيب, هل يمكن أن يحدث كل هذا التقارب في الشبه, لم تكن أختك لأنني أعرف أخواتك الثلاث, أعرف العازبتَين والمتزوجة.
بهتت المرأة وهي تحدِّق بغرابة في إرباكي الذي بدا واضحاً, كانت تقف بالقرب من الباب فدخلتْ بسرعة ساحبة على وجهها علامات دهشة, ولا أدري إن كانت خالتك أو عمتك، تقولين: خالتك, ما يهمني هنا هو هذه الحالة التي فجَّرتها في أعماقي تلك المرأة التي حملت كل ذاك الشبه منك.
لقد كان الحب هو الذي يفجِّر في أعماقي تلك اللحظات السحرية, الحب الذي تتألق الحياة به وتعلن عن مقدار حيويتها بقدر ما فيها من أناس يحبون, والأرض يا رضوى لن تكون أكثر من كوكب مظلم ممل خال من رائحة الحياة إذا فقدت المحبين لأن العشاق هم القناديل المعلَّقة في قلب الظلام ومن أجلهم تقدم الأرض ربيعاً بكل ما فيه من ألوان الزهور، ومن أجلهم تصدح بلابل العالم، والأرض تبتسم وتخضر على قدر ما عليها من محبين.

إنني ورغم شوقي مسرور بذهابك إلى هناك، أتذكرين يوم كنا نمشي في الشارع وفجأة وأنت تتحدثين أُغمي عليك.. كانت لحظات كئيبة وأنا أرى أعز إنسان لدي فقدا لوعي، كان موقفاً مرعباً، قال الطبيب يومها بأنكِ لابدّ أن تخفّفي من السهر والإرهاق والتدخين وتناول المنبِّهات، حتى أنه أوصاك بتناول شاي خفيف قدر الإمكان والإكثار من العصائر واللبن والحساء.
أجل يا رضوى فقد حفظتْ ذاكرتي كل هذه التفاصيل، ولكنني كنت أرى بأن الحل هو غيابك عن هذه الأجواء غياباً طويلاً ً، وكانت تراودني أفكار أن نسرع في زواجنا ونسكن لسنتين في بلد آخر حتى تستبدلي هذا الواقع بواقع آخر وتنفتحي على واقع جديد وتتعرفين علــى أناس وتركيبات اجتماعية جديدة وتتنسمين هواءً جديداً وحتى تشربين ماءً جديداً.
كنت هنا تمضين في دائرة مكرَّرة من الضجر حيث كل شيء كان مكرَّرا وبالنسبة لامرأة مثلك، فهذا أمر مدمِّر للروح والجسد معاً, وكان ذلك ينعكس

على إفراطك في الإرهاق والسهر والدخان والمنبّهات والقيام بعملَين معاً للتهرّب من الإحساس بذاك التكرار المُدمِّر, ولكن ذلك التهرّب في الوقت ذاته كان يعكس سلباً على تركيبتك الروحية والجسدية فتشعرين بإنهاك في الأعصاب والأعضاء معاً حتى تفقدين القدرة على التركيز, ولم يكن جسدك الذي أخذ في الذبول في الأيام الأخيرة ليحتمل كل ذاك الجهد وكل ذاك الألم الروحي.

كنتُ دوماً أقول بأنك تحتاجين إلى تغيير نمط حياتك كلها حتى لو لبثتِ هنا, فمثلا أن تقومي بتغيير كل شيء, نوعية الطعام, والشراب, والعمل، والصديقات, والموسيقى, وحتى الثياب, وموضع النوم والفراش, ولكن راضي جاء بزيارة إلى البلاد في الوقت المناسب مع زوجته وأولاده, جاء في الوقت الذي كنتِ فيه بأمس الحاجة إلى أخ وزوجة أخ برقة وروعة فرجينا، وأظنه ضحى بمبلغ كبير مع زوجته حتى استطاعا أخذك معهما.

أجل يا رضوى كنت سعيداً وتعيساً في ذات اللحظة، ولكنني الآن لست تعيساً لأنك ستعودين إلى بعد رحلة العلاج والانفتاح والدراســـة، والفراق ذاته كان فرصة ثمينة لينفجر كل هذا الشوق ويأخذ مجراه بكل هذه القوة، وتقبّل فكرة الانتظار من أجل المستقبل.

وكما ترددين لراضي هناك بأنه لا يوجد رجل على سطح الأرض يصلح أن يكون زوجاً لي غيره, فهنا أردد لكل من يسألني أنها لا توجد امرأة في العالم يمكن أن تملأ فراغ رضوى, وحتى حضني لا يمكن له أن يقبل أي امرأة غيرها, لأنك الروح للجسد وأي جسد بلا روح ستكون الحياة فيه ميتة.

أشكر راضي كل الشكر علـى كل هذه العناية, وأشكر فرجينا لاستضافتك وتقديم كل ذاك الاهتمام بك, والواقع هذا نابع من طبعك فإنك تكونين محبوبة في أي مكان تطأه قدماك, ولكن لا تنسي أن هناك مَن يحمل الحقد الأعمى لأمثالك لأنه لايتمتَّع بكل هذه العذوبة التي يفتقدها, وهذا عليه ألاّ يسبب ألماً

لك لأنه أمر طبيعي أن نجد الحاقدين على أهل العذوبة والبساطة واليقظة الروحية.
الحياة يا رضوى جميلة لأنها مليئة بالتناقضات وعلينا أن نستوعب كل هذه التناقضات بأذهان منفتحة وأن نكتشف في ثناياها روعة الحياة والجمال, فالحياة لا تُكتشف لمن لا يسعى إلى اكتشافها, وهي تتجاهل من يتجاهلها.
أجل يا غالية فان طاقات حبك ماتزال تنفجر في أعماقي وترسم معالم المستقبل، أتذكرين حينما لبثنا ست ساعات ننظر إلى بعضنا البعض دون أن نرتوي وفجأة نهضتي وقلتي: سأفعل شيئاً ما.
وكان هذا الشيء هو رقصك الشرقي العذب الذي لن أنساه، رقصت ساعة ونصف حتى بدت الموسيقى خجولة أمام إبداع الجسد، بعدها دخلت الحمّام ولبثت نصف ساعة تحت رذاذ الدش, ثم حملتك إلى غرفة الاحتفاء بك مرة أخرى, فعاد عهد التدخين, دخنتُ معك واحتسينا القهوة ثم أوصلتك إلى البيت.

في هذه الفترة حاولي ألاّ تعودي، يمكن أن تمكثي فترة أطول لأنها قد تكون فرصة المعرفة الوحيدة بالنسبة لك، وأظن أن حاجتك إلى البقاء هي كحاجتك إلى الماء وسماع الموسيقى. أجل لا أريدك أن تعودي من أجلي فأكون سبباً في كارثة كتلك بحق أعز مخلوق علي, إنني أحبك وأنا هنا وقد التقينا كثيراً, تباوسنا كثيراً وحملتك على يدي كحمامة كثيراً, قبَّلت فمك الوردي كثيراً, وأنت في أيد أمينة هناك, تحافظ عليك وتحميك حتى من النسيم, وقد تركتي في حواسي ما يجعلني أكثر تحملاً على الشوق والانتظار, كلّما أرى امرأة جميلة أرى خيالك الصلب يقفز إليها.

إن خوفي عليك من العودة إلى واقع قد لاتحتملين العيش فيه هو الذي يجعلني أكثر إصراراً على مكوثك هناك سنوات أخرى حتى تعودي ممتلئة تحملين معك نضج العالم.

عندها ستكتشفين حجم الحماقة التي كانت تتلبَّسك وأنت هنا, ستكتشفين حجم الغباء والفراغ الذي انتُزع من روحك, عندها لن تمدّي أناملك إلى سيجارة إلاّ إذا كانت تحمل إليك متعة وتحقق لك سعادة بطريقتها الخاصة, وستتذوَّقين متعة تقديم عون لشخص يكون بأمس الحاجة إليك, ستكتشفين الصور الغامضة من الحياة التي كانت دوماً تفوتك.

كوني دائمة الدوران عن الكنوز العظيمة في الطبيعة والمكان والزمان والإنسان، اقرئي سطوراً عظيمة, استمعي موسيقى عظيمة, شاهدي مسرحاً عظيماً, سينما عظيمة, وإذا أردت بناء علاقة مع صديقة، فلتكن صديقة عظيمة, وإذا قمت بعمل، فليكن عملا عظيماً .. وفي هذا كله إن عشت فاجعلي من حياتك أنشودة عظيمة تشدو بها البلابل والعصافير التي تتعلم الأناشيد للتو, أما إذا مت فليكن موتك كذلك موتاً عظيماً.
كوني كوكباً بشرياً يُضيء ليل جزء من العالم, كوني دائمة العطاء, دائمة البحث عن كل ما هو عظيم، دوما هناك بالقرب منك عظيم لاتريه, كوني دائمة البحث عنه, كوني دائمة اليقظة لاستقباله.
الأشياء العظيمة لا تأتي للنائمين إلاّ في أحلا مهم .. كوني دوماً سيدة, كوني الأكثر قوة حتى في لحظات الوهن, وإذا اعتراك بعض ضعف في موضع، فاعلمي بأنه قوة لموضع آخر.
أنري كل أضواء روحك لينبعث منك ضوء أبدي، إن أضواء الأرواح إذا أُنيرت فإنها تلبث مُنارة أبداً, وإذا انطفأت فإنها تلبث مُطفأة أبداً.
يمكن لك أن تستعيني لكل خطوات المجد هذه بنزعة التمرّد الكامنة في أعماقك، يالها من كلمة رائعة تلك التي أورقت معانيها في حدائق الإنسان زهور الانفتاح والحرية والفوضى المشمسة.
التمرّد هو الذي حقَّق إنسانية الإنسان, فالذي لايحرّك نزعة التمرّد في كوامنه ولو لهنيهات قليلة في العمر لهو شبح أكثر مما هو كائن بشري حي, ولا يتذوَّق عسل التمرّد إلاّ ذاك الذي يعيش الحالة روحاً وجسداً, ليس بوسع

الإنسان أن يكون نصف متمرّد لأن التمرّد بذاته هو حالة كمالية تتجه بصاحبها إلى الإشراق الروحي والارتقاء المعرفي.

كل الإنجازات البشرية المذهلة، انطلقت شراراتها الأولى من فكرة التمرّد، أمّا أولئك الحمقى الذين يمضون بنصف عقل أو بربع عقل، فانهم يلبثون يراوحون في أماكنهم العقلية والروحية والجسدية والزمنية.
الإنسان الانقلابي هو ذاك الذي يرضع حليب التمرّد إلى آخر لحظات عمره, الذي يتمرَّد على أمه وهو يرضع حليبها, إنه ذاك الذي يصيح من داخل البيضة كما يقول المثل, يمكن لك أن تحطِّمي شيئاً الآن كخطوة أولى نحو تمرّد.
أريد أن أقول لك أن التمرّد هو شعور عام بعدم الرضى عما يدور حولك وأن كل شيء هو ممل ومضجر لايحمل جديداً, هذه حالة أولى من حالات يقظة روح التمرّد والعصيان, وهي تأخذ في التطوّر إلى أن تتحوَّل إلى أفعال.
ما كان للإنسان أن يعيش في النعيم لولا تمرّده, وهو الآن يقطف ثمار هذا التمرّد في مختلف المجالات العلمية والفكرية والتقنية، وهكذا يكون كل هذا الإنجاز الهائل الذي بلغه الإنسان عبارة عن حالة كبرى من التمرّد بالنسبة لأولئك الذين عاشوا قبل أربعة آلاف سنة.
ثمة أناس حاربوا كثيراً ولسنوات طويلة حتى يزرعوا بذور الهزيمة والجبن في أعماق ناسنا, حاربوا /وناضلوا/ كثيراً في سبيل أن يغتالوا نزعات التمرّد المباركة في أعماق أصحابها, وهم الآن يُباركون للناس موت الشخصية لديهم, يُباركون لهم كل هذا الموت الذي تفوح روائحه من دواخلهم.
الناس ماعادوا يجيدون غير الاستجابة ويبدو لي أنهم انسجموا مع هذا الواقع وهم أنفسهم بدأوا يدافعون عنه, وهنا لا أخفيك أن المأساة بلغت ذروتها وأنني أحياناً أنهض في الثالثة صباحاً من الفراش أبحث عن شمعة واحدة في ظلام حالك.

هناك أصوات تنادي باشتعال الناس, ولكن هناك فئة تبدو راضية عن هذا الظلام وفي أحيان كثيرة هي ذاتها تأتي فتطفئ أي بصيص ضوء, حتى أخذ اليأس يصيب هؤلاء الأبطال الذين يعملون في الظلام, فعلى أي خط يعملون وفي أي اتجاه يمضون.
دوماً أتذكَّر كلامك: الإنسان هنا يمارس حريته, ولكنها حرية نابعة من الصدق والعفوية وقوة المسؤولية تجاه الذات وتجاه الحالة الإنسانية العامة.
أجل فإنه يمكن حتى لرجل متزوج أن يشعر بميل نحو فتاة أو امرأة, ولكنه سيكون واضحاً وهو يرفض أن يدخل سريرها دون أن تعلم زوجته بذلك لأنه من حق زوجته مادام قد عاهدها على ذلك كما أنها من حقه كما عاهدته على ذلك, ومن الطرف الآخر فإن الحبيبة ذاتها ترفض أن تكون مُشعوَذة بهذه الطريقة المخزية, فإن أجازت لنفسها ذلك فعليها أن تجيز بالمقابل لذات الرجل عندما تتزوجه بأن يبني علاقة سرية مع غيرها. وكذلك سيدرك الرجل أن امرأة كهذه بعد أن يتزوجها ستجيز لنفسها أن تبني علاقة سرية مماثلة مع غيره دون أن تخبره لأنها هي ذاتها التي خانت زوجها, أو خانت أهلها, أو خانت رب عملها.

كل واحد هنا يعيش حالة بطولة عظمى في داخله ويمشي معتزاً بنفسه وبتاريخه, كل الذين أراهم في الطرقات هم أبطال بقوة الحقيقة التي يعيشونها, وقوة الحرية التي يمارسونها وقوة الإبداعات الأصيلة التي يقدمونها فأنظر إليهم وأنا أتخيَّل حالة الهزيمة التي يعيشها الإنسان عندنا وهو يمشي ذليلاً أمام نفسه دون أن يجد موقف بطولة يفتخر به في تاريخه.
عندها تتقافز عبارات والدي التي كان دوماً يكرّرها في البيت بعد أن تقاعد من وظيفته وهو يلقي نظرات إلى الحيطان خوفاً من أن يسمع شخص ينصت إليه من خلفها: أربعون سنة مرت وهم يفرضون على راتبي ضريبة المجهود الحربي لجيش لاأظنه سيستطيع أن يصمد في حالة حرب أربعين يوماً.

الحياة هنا تنبني على الحقيقة ولو كانت مرة, كل واحد يعيش مع الآخر بوضوح ومن هنا تنبع الثقة - لاأقول/العمياء/ كما كنت أقولها هناك ولكن/اليقظة/ - أجل فإنني أشعر في بعض جلساتي مع فرجينا العظيمة بأنني طفلة دون سن الرشد وهي المرأة الحكيمة الناضجة التي تصغي إلى حفيدتها وتروي لها الحكايا المنسجمة مع سنها كي تأخذ منها العبر رغم أننا في سن متقاربة, فتتعلَّم هذه الحفيدة من جدتها مد الخطوات الأولى نحو حياة طويلة تدرك معها أن قوة الإنسان لاتكون إلاّ على قدر ما يتمتع به من قوة الشروق.

أحياناً أخجل من عبارات أقولها لأنها تعبّر عن مدى جهالتي في الحياة ومدى الظلامية التي أتخبَّط بين جدرانها المغلقة, ولكنها تأتي وتعلّمني وتمسك بيدي كالأطفال حتى تعبر بي الشارع المزدحم بالسيارات بأمان.
أشعر بأن علي أن أكافح كثيراً حتى أرتقي إلى مرحلة يمكن لي أن أناقشها من تلك الأرضية وأكون معها في مرحلة نضج وانفتاح وامتلاء بالحياة, ولكنني أكافح بكل استطاعتي ولا أدع ساعة واحدة تفوتني دون أن أبني فيها شخصيتي، أتعلَّم كيف أتذوَّق الموسيقى العظيمة, كيف أقرأ كتباً عظيمة, كيف أنظر إلى الإنسان نظرات عظيمة, أتعلَّم استخدام الانترنيت وقد قطعت فيه خطوات متقدّمة, أستخدم الكمبيوتر بشكل متقدم, أتعلم اللغة، وقد أنجزت قراءة سلسلة مؤلفات لـ فوكنر, وهمنغوي, وأدكار آلن بو, ومارك توين, وأوسكار وايلد, وإيزابيل الليندي, ووالت ويتمان, وألبير كامو, وسارتر، وإيف بونفوا, ورامبو, وآراغون, وبول إيلوار, وسيمون دي بوفوار. وسوف أقرأ في المرحلة المقبلة كتباً أخرى أستعيرها من المكتبة الضخمة التي تحتوي على كتب مترجمة لمختلف اللغات وفق الخطة التي تضعها لي فرجينا التي قرأتْ كل تلك الكتب الذهبية في فترات مبكّرة من عمرها وتحدّثني دوماً عن تلك الشخصيات الأدبية الثرية فأزداد توقاً لأقرأها جميعاً.
كل وقتي أستثمره للمعرفة، أجل سأعود إليك وأحدّثك عن كل هذه الأشياء بتفاصيلها .. وسننجب أطفالاً نروي لهم أنت وأنا كل شيء.

كل عباراتك تتكرَّر في سمعي بشكل يومي وأتعلَّم منها الكثير, ولكن أصارحك بأنها مواجهة لذيذة بالنسبة لي, فأنا أستمتع بهذه المواجهة وأنجح في اكتساب بعض أصدقاء نقدم مواقف نقية في المجتمع ونحن نعلم بأن محاولاتنا الصغيرة تقدم قطرات ماء لهذا الحريق الشاسع.
الحرية تحتاج دوماً إلى أناس متمردين أكثر مما تحتاج إلى أناس انهزاميين يرضخون تحت الأمر الواقع .
تهبُّ نسماتُ التراجع الكبرى في فضاء إنسان بلغ به اليأس مرحلة ما عاد فيها قادراً على مد خطوة إلى أمام على مختلف صعده الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والصحية, ثم في فصول قادمة تشتد غيوم فضائه دكناً وتتحوَّل النسمات في تطورها إلى عواصف.
هنا يتطوَّر هذا الإنسان جنباً إلى جنب مرحلته الجديدة تاركاً التراوح في المكان، أو الصمت الذي كان به مرحلة النسمات, فيبدأ خطوات التراجع نحو الوراء على كل صعيد منتقماً من ماضيه ومن كل فعل نافع قام به إدانة لتلك النسمات التي غدت تشتد في هبوبها عليه، فيمسي هذا الشخص دائراً في فضاء مفتوح من هذيان.
قد نرى نماذج كهذه في معظم طرقات العالم فنقول: كان الله في عونهم. ونمضي في سبيلنا، بَيدَ أن المأساة تكمن عندما نرى أصحاب هذه الأقوال والأفعال الهذيانية يشغلون مواقع حساسة في حركات بعض مجتمعات أو تنظيمات، فتسير هذه الأفواج البشرية الهائلة في حلكة ليل مستهدية بهذيان هذا الكائن.

يمكن الآن أن تقومي بإلقاء نظرات سريعة إلى التاريخ التربوي والثقافي للمجتمعات التي تنعم بمجد الحرية الفكرية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، فتريه يرتكز على رموز ثقافية وتربوية كبرى في تاريخ الإنسان بدون الالتفات إلى مكان مولد هذا الفكر، أو إلى قوميته، أو إلى انتمائه الديني.

أجل أنا أوافقك بأن القصور كل القصور كامن في معلومات تراكمية ترد في غير زمانها ولا مكانها على صفحات مناهج تربوية من رياض الأطفال, والـى المراحل الجامعية, حتى لو وردت على ألسنة أناس يعيشون عصرنا, ولكنهم لاينتمون إلى هذا العصر العالمي المفتوح بأي صلة سوى أنهم يركبون السيارات ويتناولون طعامهم بالشوكة.
لجنة مؤلفة من عشرة أشخاص محليين لا تكفي لرسم مناهج تربوية لشعب بأكمله وبمختلف تركيباته وميولا ته ونزعاته، وهذه اللجنة المحدودة تكون بذات الوقت منطلقة من نظرة محدودة واحدة لا أحد فيها يختلف مع الآخر, وأحياناً يتم تكليف شخص لوضع منهاج تربوي لجيل بأكمله, ويكون هذا الشخص ذاته فاشلاً في تربية ابنه, فاشلاً في العناية بصحته, وهو غير مطَّلع على ثمار الفكر البشري عبر تاريخه, غير مطَّلع على مراحل تطور وتراجع وتعاقب الحضارات والمجتمعات البشرية, إنه ببساطة يارضوى ذاك الشخص الذي هبَّت عليه نسمات التحوّل الكبرى, وهذا يأتي على مواقع حسّاسة مختلفة تفعل فعلها في حركة المجتمع.

إنهم يمثّلون ثقافات مجتمعاتهم ويسهمون في الغفوة التثقيفية في المراحل التي يمثلونها، وصحيح يارضوى إن أي إخفاق يصيب الذوق الثقافي عند المجتمع، فإنهم يتحمَّلون المسؤولية التاريخية كونهم شغلوا مواقع تاريخية, أو قَبِلوا أن يشغلوها وفشلوا في مهماتهم, ولكن المجتمعات أيضاً تتحَّمل جزءاً من المسؤولية لأنها تقبل أن ترسل أولادها إلى منهاج تربوي كهذا.
التقوقع على الذات والتغني بأمجاد الماضي لايقدم شيئا في واقع بات يستعين كل جزء فيه بالجزء الآخر كجسد واحد، ليس من سبيل غير أن تدركي فقه الواقع وتعيشي لحظاته في عالم لم تعد فيه ثقافة الانغلاق مجدية بأي لون من الألوان.
لا أظن بأن حديثي انتهى هذه الليلة المباركة, وأظن بأن الساعة قاربت على الثانية ومازال لدي ما أقوله لك أيتها المرأة الغارقة في عذوبتها في عالم يكاد

يستبد به الشريرون تاركين أهل العذوبة يعيشون في الدرك الأظلم من الهامش.
إننا لم نعد نعرف مَن هو ذاك الشخص الذي سيدنو ويطلق عياراً نارياً علينا ثم سيختفي بكل برودة دم، لم نعد نعرف في أي خطوة سيظهر كائن يسبِّب عالماً من الجرح والألم لنا بموقف بارد, بتنا ننام على قلق في أسرَّتنا ويمكن لحركة غير مقصودة من قطة تبحث عن كسرة خبز تجعلنا ننتفض وندرك بأنها النهاية.

ياه كم هو تعيس ذاك الذي يعيش في عالم لا أمان فيه، كم هو عالم بائس ذاك الذي لايحقق الأمن لأبنائه. الخوف.. هاجس الخوف هو الذي يستبد بنا الخوف من بعضنا البعض. أجل يارضوى وبكل مرارة أقولها لك بأننا لانخاف الحيوانات الشرسة، بل خوفنا هو من أولئك الذين هم أكثر شراسةً وفتكاً, أولئك الذين يجيدون لعبة القتل بدماء باردة, يقتلون كأنهم يلعبون، يقتلون والضحك الأسود يملأ أصواتهم القاتمة, إنهم لا يجيدون غير رسم المؤامرات وبث الفزع في أكثر الناس سلاماً وبراءةً.
لذلك فان قطرة دم واحدة من إنسان بريء أينما كان ومن أي مذهب أو لغة ستبقى علامة سوداء في السجل البشري، وعندها حتى الأشجار تذرف الدموع , حتى العصافير تصوّب نظرات إدانة، الربيع يكون أقل زهوراً، والزهور تكون أقل أريجاً تضامناً مع دم ذاك الإنسان البريء.
أناديك بأن الحب هو الذي يخفّف من نزعة الافتراس في الكائنات كلها، ولذلك يكون كل هذا العنف وكل هذه المؤامرات على الحب، دوماً فإن مشاعر الحب تقود صاحبها إلى رحاب الجمال والتسامح والفضاء الفسيح.
يمكن أن نحب الأصدقاء، أن نحب الزهور، أن نحب الغناء، أن نحب المسير على أطراف الأنهار، أن يدفعنا الحب إلى كل هذا الهمس الخافت الذي يستجيب من بُعد قارتين، ذاك الحب الذي لا يعرف الإنطفاء لحظة واحدة.

أقول لك أن ما دفعني لحديث كهذا هو ذاك النقاش الحاد الذي جرى بينك وبيني وأدى إلى فراق شهرين بيننا، حينما راقبك أحد اللصوص حتى دخلت بيتي فأراد أن يحقق بطولة وهو يتصل بأهلك، ثم يتصل بجهة رسمية ليأخذ التشهير مداه, ولكن كانت الحكمة هي التي دفعتنا لإعلان حب عفيف أمام الطرفين الاجتماعي والرسمي وكانت دموعنا هي الشاهدة علـى ما قلنا, أجل لم نكن نفعل شيئاً سوى أننا كنا نتحدث ونبكي, وكم كان بكاءً رائعاً يمسح كل شعور بالألم ويرفرف بنا في عالم فسيح، لقد كانت محاولات كبرى للهروب من الواقع وكان الحب يستجيب لرغباتنا ويأخذ بأيادينا برفق، ثم يرفعنا إلى فضائه.

الحياة تحمل القسوة, ولكنها أيضا تحمل العذوبة وأظن لدي طريقتي الخاصة التي أكتشف فيها الحياة وأعيشها وفق مزاجي وميولاتي.
المكان هنا ورغم كل مشاعر البؤس، فإنه ينجح في أن يقدِّم نشوة للروح, وأظن أن لحظات السعادة التي تهب على الجراح كالبلسم هنا لن يكون هبوبها يسيراً هناك.. ربما ستهب على الجراح, لكنها لن تكون بلسماً لأنها لا تنتمي إلى عمق المكان, ربما سنظفر بسعادة مؤقتة في تلك البقاع وفي زيارات مؤقتة متقطعة, بَيدَ أن نشدان سعادة متأصّلة في الروح لايكون في موضعه, ليس بوسع أحد أن يكون سعيداً وهو بعيد عن تربة بلاده مهما تبدّا له بأنه سعيد.
هنا يارضوى, هنا حيث رائحة الكلمة الأولى التي لفظناها, رائحة النهر الأول الذي تعلَّمنا فيه السباحة, رائحة الشارع الأول الذي خطونا خطواتنا الأولى في كبده, هنا يارضوى يكون دفء التآلف بالمكان, حتى النبي فإنه عندما تمكَّن، عاد إلى مكة حيث موطنه وأصدقاء طفولته وشوارع يتمه وحبه الأول, عاد وهو يقول بأنها أحب بقاع الأرض إلى قلبه, هناك تعلَّم كيف يطبع القبلة الأولى على وجه أحب امرأة لديه, هناك كانت ذكريات اللجوء إلى

حضن الحبيبة هارعاً من غار حراء لتزمّله وتربّت على كتفيه, لذلك عاد إلى قرية الروح التي نما فيها وهناً على وهن.

هناك يارضوى لن يكون بوسعي أن أستنشق هواءً شرقياً عذباً اعتادته كريّات دمي, لن يكون بوسعي أن أصادف في أي شارع صديق طفولة, حبيبة أولى وضعتُ على خدَّيها قبلات المراهقة الأولى, لن يكون بوسعي أن أصادف قريباً عزيزاً, أو جاراً قديماً, هناك ستكون أنسام غربة .. غربة فحسب.
لننس كل شيء ونتذكَّر بأن علينا العيش في قلب الحياة، وتقديم أكبر طاقة محبة فينا للآخرين.
كنتِ قلتِ في رسالة سابقة بأنك تتواصلين مع أنباء عالمنا المغلق من خلال القنوات الفضائية, والحقيقة فهذا أهم إنجاز تحقَّق لنا على صعيد إسماع الصوت، وعلى صعيد جعلنا جزءاً من هذا العالم، ها هي شمسنا التي تشرق مرة أخرى على ضفاف العالم وأبنيته وهي تشرق من كسوف طويل، ها نحن نقول كل شيء دون أن يتمكَّن أي رقيب من قص كلماتنا على هواه وعلى هوا أسياده كانت هذه الأجهزة حكراً، والآن غدت صوت من لا أصوات لهم, أصبح بإمكانهم أيضاً أن ينادوا بأصواتهم على مسامع العالم, وهذا عرس لكل العراة والحفاة والجياع والمرضى والعشاق.

هناك من يرتعب من كلمة /انفتاح/ هناك من يهمه أن تبقى كل نوافذنا مغلقة حتى لا يرانا أحد ولا نرى أحداً، وأن نبقى عراة إلى الأبد, أغلب سكان عالمنا الصغير هذا يموتون دون أن يستخدموا جل تقنيات العصر, ودون أن يروها أو يسمعوا بها, ودون أن تتيح لهم الظروف ولو لمرة واحدة مشاهدة إحدى مدن العالم.

أريد أن تقدّمي أغنياتنا ورقصاتنا وسياساتنا ومعتقداتنا وواقعنا إلى صديقاتك هناك وأن تحرّضيهم لمشاهدة قنواتنا الفضائية الأكثر انفتاحاً وواقعية، إنها خطوة هامة من خطوات التحرر والانفتاح على روح المجتمع المدني المتآلف المسالم, خطوات هامة من خطوات النور الذي سيسطع في بيوتنا ومدننا وعواصمنا, تلك القنوات الأكثر فدائية والأكثر تعرّضاً لنيران أبناء الظلام.

ما الذي سيبقى لنا إذا لبثنا غرباء عن العالم, ولبث العالم غريباً عنا؟

أجل يارضوى لسوف ينتصر الإنسان على كل سياسات وحروب العالم, سوف يحب بعضه البعض ويسافر إلى بعضه البعض, وسوف يحن لبعضه البعض رغم كل هذا الحقد الذي يبثونه بين سكان هذه المعمورة المتواضعة, ولكن علينا أن نكون أكثر تضحية وأقل جبناً في هذه المواجه, علينا أن ندرك أن لكل شيء ثمن, حتى السيجارة التي تتمتَّعين بتدخينها فإنك تدفعين ثمناً لها, مشكلتنا الكبرى أننا نريد لكل شيء أن يأتينا جاهزاً على جناحَي حمامة ونحن في أسرَّتنا وأننا نميل إلى الرضى بالأمر الواقع والرضوخ له نازعين من أرواحنا كل نزعة من نزعات التمرّد والمواجهة في سبيل حياة أفضل ومجتمع أرقى.

كثيرون يمضون في الطرقات و بؤس العالم في وجوههم, يمضون وهم على ثقة بأنهم ينتظرون أن يموتوا أكثر مما ينتظرون أن يعيشوا, حتى مشاعر الرغبة في الحياة ميتة في دواخلهم.

أريدك أن تنظري إلى الحياة جيداً هناك وتقولي لي كل شيء, أن تعلّميننني ما لا أعلم، بالنسبة للأزمة النفسية الحادة التي تمرّين بها, ومشاعر الغربة التي تستولي عليك, فهذه حالة طبيعية أينما كنت, وهنا تبرز مدى قدرتك على المواجهة والتصدّي لهذه الحالات التي أتتك عن طريق الوراثة كما قلتِ لي ذات يوم, ويمكن أن تستعيني بطاقة الصبر الكامنة لديك وأن تدفعيها إلى التحرّك لتعينك على المواجهة, وألاّ تستسلمي لها لأنها عندذاك سوف تلتهب

وتأخذ مداها وتستولي على كل ذرة فيك, ويمكن أن تستعيني بشيء من الفوضى واللا مبالاة و اللا ترتيب في بعض المراحل لأن ذلك سيفتح أمام نفسك طاقة الانطلاقة نحو الحياة. وثمة جملة هامة يمكن تلخيصها من كل كتابات /كانط/ هي: عدم الثقة المطلقة بشيء. وهي ستقدم لك الكثير, وأظنها من الأفكار الهامة التي توصل إليها الإنسان، فدوماً توقَّعي أن أصعب الاحتمالات يمكن لها أن تقع في أي لحظة متوقعة، أوغير متوقعة, وكان يمكن لك أن تكوني غائبة الآن بتلك الطريقة المأساوية لولا أن راضي اقترح بقاءك للمشاركة في ذاك الاحتفال الصغير الذي أنقذك.

دوماً تأتي البساطة لتضمد عُقَد الإنسان وتقتلع الأشواك من روحه, وكذلك يمكن أن تستعيني بالموسيقى الهادئة والاسترخاء, وفي أوقات أخرى الخروج إلى الطبيعة ونسيان كل شيء.
هناك أحاديث تدور بين بعض الفئات تقول بانتهاء دور القراءة أما م قوة التقنيات الحديثة, وعبارات العزاء تنهال, المصابيح تنطفئ, نجّار الكلمات يصنع تابوتاً هائلاً لجثة القراءة, وهناك أشخاص يرتدون معاطف طويلة سوداء ويضعون القبعات على رؤوسهم المنحنية ويمضون بخطوات كسيرة في جنازة القراءة. لاأحد يدري من أين أتى هؤلاء الذين يشبهون الأشباح, أجل يارضوى يحلو لهم أن يقدموا تصويراً نهائياً عن موت القراءة, والواقع أنهم يعطون تصوراً عاماً عن موتهم, فالإنسان الذي تنطفئ من أعماقه شعلة اشتهاء المعرفة تنطفئ أعماقه كذلك.
هؤلاء يرغبون في إلغاء دور المعرفة الأصيلة والعريقة ولذلك تسرّهم عبارات التعازي التي يلفظونها، وكأنهم لاينتمون إلى روح العصر الذي يعيشون فيه, هؤلاء يطالبون كذلك بإلغاء كل شكل من أشكال المعرفة والتطور حتى يبقى الإنسان أعمى ينقاد تحت سياط عميه, ولو صح أن التقنيات الحديثة لاستقبال المعرفة أدت إلى إنهاء دور ومكانة القراءة, لكان المقروء شبع موتاً في ذاك البلد الذي تعيشين فيه, ولكن تقولين بأن أعداد

الصحف والإصدارات في ازدياد هائل, ويمكن أن تُطبع ملايين النسخ من كتاب أدبي وتنفذ في شهرين. فكل شخص توّاق إلى المعرفة، لديه مكتبة في بيته، فهي اللحظات الذهبية التي يجلس فيها بالقرب من مكتبته وينتقي كتاباً فيبدأ بالقراءة .
يبدو لي أن القلم يعيش الآن أزهى مراحله, والصفحات منسجمة معه يعيشان معاً ذروة مرحلة الشبابية وكأنهما عريسان يُزف أحدهما للآخر للتو.

مازال في الكلام بقية يارضوى وأنا في كل هذا الاحتراق، مازال في الكلام بقية, منذ أسبوعين وجدوا /نرمين/ جثة مشوهة علـى ضفة النهر .. /نرمين/ التي أحببتها ثلاث سنوات، تلك التي كان اللقاء الأول لك بها شتيمة, عندما تقدَّمتْ إلي في الحديقة وقبَّلتني, يومها صعد الانفعال إلى وجهك وأنت تسألينني بهمس: أهذه أختك؟ قلت لك: لا, إنها نرمين، فقط معرفة.
أتذكرين يوم بصقتِ في وجهها وقلتِ لها: يا قحبة.
لم تفعل شيئاً سوى أنها سدَّدت إليك نظرات حرائقية وانصرفت.
كنتِ شرسة في رد فعلك، يومها قلتُ لك بأنها امرأة شديدة البساطة وتعبّر عن شوقها بهذه الطريقة, ولم أستطع أن أشرح لك كل شيء, لكن فيما بعد عندما كنا نصادفها في أماكن عامة كنت أتحدث عن جوانب أخرى في شخصيتها, وأخفيتُ عنك الكثير وقد وعدتكِ مرات عديدة بأن حديثاً كهذا لن يكون مجدياً إلاّ إذا رأيتني راغباً في روايته لك, وأن يكون هناك ما يشعل هذه الرغبة لأتمكَّن من الحديث بالقناعة الكافية.
أجل ماتت بطريقة غاية في السوء وخلَّفت في هذا العالم سمعة سيئة تحرق حتى كل امرأة تمت إليها بصلة قرابة، دوماً كنت أقول لك بأنها ضحية، لكن رغم كل ذلك فإنني أدينها، وأدينها وهي ميتة.
سأروي لك القصة التي طالما رغبتِ في سماعها وكنت أتحاشاها، أجل عليك أن تسمعي لأن ذلك من حقك كما قلتِ لي سابقاً.

الفصل الرابع

ذات يوم جاءت وقالت لي بأن صديقة لها عرضت عليها تلك المهمة التي تعرفينها لقاء مبلغ جيد, ولقاء التمتع ببعض الميزات الخاصة، والتعيين في وظيفة, ثم ضحكتْ وقالت: يقولون لي بأنها مهمة خاصة وأنني سأكون جندية مجهولة. ولكنني أرغب في تأمين لقمة العيش والعمل بالشهادة التي أمضيتُ نصف عمري في سبيل الحصول عليها, يبدو بأن ذلك مستحيل وأن ذاك العمر سيذهب كشربة ماء إن لم ألحق نفسي وأستجيب لليد التي امتدَّت لإنقاذي وجعلي بطلة مجهولة, دوماً يرفعون الشعارات الكبرى حتى في المستنقعات الكبرى, حتى في لحظات نزع الكرامة والكبرياء من أهل الفطرة, أولئك الذين يسعون لأن يعيشوا بكرامة بقليل من كبرياء, ولايرغبون سوى بقبلة من فم حبيب وبشيء من موسيقى هادئة ويغفون بطمأنينة دون أن يتدخَّلوا بشيء.

قلت لها بأن هذا السقوط سيؤدّي إلى فراقنا فراقاً أبدياً: إنك تمرّين في امتحان صعب ويمكن أن تبرهني عن قوة شخصيتك بالمواجهة.
بدت أمامي شخصية انهزامية مهزوزة وهي تعلن ذروة يأسها من إيجاد وظيفة, كانت بحاجة إلى نفقات بسيطة ولا تجدها, وكان البيت بحاجة إلى نفقات, وبدأتْ تشرح لي كيف أنها مع أبوَيها يعانون في بعض الليالي من عدم وجود كسرة خبز في البيت وأن سمّان الحي امتنع عن بيعهم شيئاً

بالدَين, فكانت الخطوة الأولى نحو الخروج من حياتي, لكنها كلما كانت تراني في الشارع تنظر إلي بإمعان, ثم تنفجر بكاء وتمضي مسرعة.

حاولتْ مرات عديدة بعد ذلك زيارتي في البيت فاعتذرت عن استقبالها لأنها خرجت من حياتي ولم تكن لدي رغبة لتبادل كلمة واحدة معها, وكانت تلك هي الأيام الأولى لمعرفتي بك, وأيضاً لم أكن مشدوداً إليك, لأن الإنسان كما تبيَّن لي لا يستطيع أن يكتشفك إلاّ بعد فترة طويلة من العلاقة المستمرة, وأنت بطبعك تميلين إلى الغموض والـى حسم اللقاءات القصيرة في أوقات سريعة, ولديك مزاجية حادة تبلغ أحياناً حدود العصبية, ونادراً ما يكون المرء مستعداً للنَفَس الطويل حتى يكتشف كنوزك الخفية, إنك عالم مغلق يحتاج اكتشافه إلى كثير من صبر وتحمل وجهد, ولكن الذي يقع على كنوزك، فإنه لن يستطيع التخلّي, ويتمسَّك بك بقوة العالم، كانت أحياناً تحرجني بزيارتي في العمل أو تنتظرني أمام باب البيت عندما أخرج, أو أعود.
قلت لها بأن امرأة دخلت حياتي وأراني مندفعاً إليها رغم غموضها وأرجو ألاّ تتصلي بي بأي شكل, لكنها استطاعت أن تضع يدها على نقطة ضعفي, وهي تعلم بأنني مهووس بمعرفة الأسرار, فبدأت تروي لي إنجازاتها اللاأخلاقية عبر رسائل سريعة تضعها في يدي, أو عبر لقاءات خاطفة في أماكن عامة, ثم بدأتُ أسمح لها بزيارتي في البيت عندما تحمل نبأً هاماً.
ذات مرة قالت بأن /الرجل/ كلَّفها بمهمة التعرّف على طبيب, ولم تقل لي اسمه رغم كل المحاولات لأنها كانت موقنة بأنني سأتدخَّل بأي وسيلة كانت لأبعدها عنه, دامت المهمة ثلاثة شهور حتى استطاعت أن توقع الطبيب في المصيدة, فكان الثمن مبلغاً خيالياً, ولم ينتظر الطبيب طويلاً حتى باع كل مايعنيه و هاجر لأنه أدرك بأن سلسلة الابتزاز لن تنتهي عند ذاك الحد, ولم يكن مستعداً للتضحية بمركزه وأولاده وزوجته وسمعته.

في آخر لقاء لها به بصق في وجهها وقال: قد أحترم أي عاهرة في العالم, ولكن لا يمكن لمخلوق أن يحترم كل هذه القذارة التي تحملينها, إنك أكثر من قذرة.
كانت هذه المواقف تزيدها بعداً عني, وتزيدني كراهية لها إلى درجة أنني رأيت بأنها خرجت عن كل ذرة إنسانية فيها, أجل يارضوى لم تكن سعيدة بأي حال من الأحوال وكانت لاتنام إلاّ ثملة أو بأقراص منوّمة, وأظنها كانت تتعاطى ألواناً من المخدرات وإن لم تصارحني بذلك, كانت دوماً منهارة ومرهقة وكأنها على وشك الموت بعد لحظات.

مرة أخرجت أمامي مظروفاً من أقراص وجع الرأس وتناولتها دفعة واحدة وهي تقول: أريد أن أتخلَّص من هذا العالم السافل, لم أعد قادرة حتى على النظر في المرآة.
وشرحتْ لي كيف أنها منذ ثلاثة أيام عادت بعد منتصف الليل من مهمة فنظرت إلى المرآة ورأت وجهاً ممسوخاً, اشمأزت منه, ولو ملكت وسيلة لخلعته من رأسها, حلفت لي بأن الوجه لم يكن وجهها، كان منظراً مرعباً تبدّا أمامها فهرولت مذعورة من الغرفة وراحت تدخن وتشرب الشاي أمام الباب حتى طلوع الضوء.
منذ ذاك اليوم، بدأت المرآة ترعبها، حتى في السيارات أو في الأماكن العامة التي يمكن أن تعكس صورتها, فإنها تهرب خوفاً من تكرار المشهد الذي يبث فزعاً إلى داخلها.

بغتة أخذت الأقراص مفعولها وأغمي عليها, لم تعد قادرة علـى سماع أو قول كلمة فاتصلتُ بالإسعاف وذهبت معها إلى المشفى, مكثتْ يوماً واحداً وخرجت.
في أيام أخرى كنت أراها في ذروة السعادة والانتشاء وهي تقول لي: لكن رغم ذلك لم أفقد الأمل بأنك تحبني وأننا سنتزوج ذات يوم، أجل أنا ساقطة,

ولكن هذا لن يدوم طويلاً, سأريك بأنني كيف سأستطيع أن أكون كذلك بمنتهى العفة, وستقبِّل عينَي كما كنت تفعل, عليك أن تنظر إلي بشيء من تسامح ورقة وبُعد نظر.

أنت تقولين كلاماً فارغاً, لاتتصوري بأنني ذات يوم سأستطيع أن أنسى غدرك وحقدك وسقوطك, ولكن أريد أن أعرف المزيد وهذا هو الشيء الوحيد الذي يجعلني متواصلاً معك، أنت امرأة سيئة يا نرمين، عليك أن تدركي هذه الحقيقة.
أحياناً كنت أقنعها بترك هذا السبيل وفي لحظات الضعف كانت تلين إلى درجة أنها تكون على وشك الموافقة وقطع عهد بذلك, لكنها تقول: أمهلني أياماً لأفكر بطريقة تبعدني, لاتتصور أن الخروج من هذا السبيل بسهولة الدخول فيه, الأمر أعقد مما يصوره لك خيالك.
ولكن بعكس كل ذلك فقد جاءتني بعد أيام .. جاءت تتطاير فرحاً وتقول بأنها نجحت في اصطياد أحد المحامين المشهورين, وكانت الفضيحة ستهز البلد لولا أنه اشتراها من /الرجل/ بمبلغ يمكن أن يشتري به مكتباً جديداً لابنه وسط المدينة.
كانت هذه التفاصيل التي ترويها لي تثيرني وتزيدني إصغاءً واستقبالاً لها, وكنتُ بين الأشخاص النادرين الذين يسمعون بإشعال هذه النيران وإخمادها, كنت دوماً أزور الضحايا لأرى في وجوههم حقد العالم على كل شيء.
لا أعلم لماذا كنتُ أزورهم تحت حجج واهية لأنظر في وجوههم فقط وأعود، ومرة زرتُ /الرجل/ أيضا فقط لأنظر في وجهه لأنني شعرتُ بحاجة لأنظر في ذاك الكائن ولو نظرة واحدة لأن أمثال هؤلاء يأتون بسرعة, ويغادرون بسرعة.

زرته بحجة ما لم أعد أذكرها ودون أن أُعلِم نرمين وهي التي شوَّقتني لأن أراه, وهو الذي كان الرجل الأول الذي نام معها على سرير واحد, الرجل

الأول الذي أخذها مني, وانتزعها من مملكة حبها وهي في الثالثة والعشرين من عمرها, كان يهمني أن أنظر في رجل بكل تلك الفظاظة, وللتو عرفتُ بأن الإنسان يمكن له أن يكون شريراً ويمارس الحقد على الآخرين، كان ألمي لا يُطاق ولم أستطع العودة إلى البيت.. اتصلتُ بصديق وذهبنا نسهر علـى ضفة النهر حتى الصباح و كنت خائفاً من العودة إلى الفراش، يومها التهب في صدري خوف على نرمين وشعرتُ بمسؤولية نحوها, فهي التي منحتني أعظم لحظات الحب والحنان والعذوبة, وما كان علي أن أنسحب من حياتها أمام أول امتحان تتعرَّض له, كان علي أن أقف جوارها بكل قوَّتي وأسندها بكل إمكاناتي لأنها كائنة ضعيفة وتحتاج إلى وقوف كائن قوي يحميها ولو بالقوة, وأعلمتني كيف أن شيئاً من سمعتها السيئة تسرَّب إلى أبوَيها، وبدءا في مواجهتها, لكن الرجل ينقذ الموقف عندما يأتي إليهما حاملاً الهدايا ويبلغهما بأنها تعمل لديه بعد دوامها لقاء أجر جيد, وبذلك حتى غيابها ليلة عن البيت كان مبرراً بمجرَّد اتصال هاتفي من الرجل.

خطر لي أن أكفّر عن خطيئتي, وأن أعلن زواجي منها رغم كل ما اقترَفَته, ولكنها قذفت نفسها في وحضني وقالت كلامها الذي لن أنساه ماحييت: يا حبيبي سوف يجعلون لك قروناً, وأنت أنبل من أن تكون كذلك, ستبقى أنت الأمل الذي أنظر إليه على أنه الشمس القادمة التي سوف تسطع ذات يوم على كل هذا الظلام, أريدك أن تبقى شمساً تدفئني كلما شعرتُ بالبرد.

ثمة أناس يحيكون كل هذه المؤامرات على بعضهم البعض, ثمة أناس يعلنون مواقف العداء علـى كل الحالات الإنسانية، ويسعدون بالتدخل في حياة المستضعفين وإفسادهم, كنت دوماً أقول في نفسي بأنها ضحية حالة نفسية سيئة للغاية, ولكنه الضعف الذي أمقته بكل قوتي, الضعف الذي يؤدّي إلى الاستسلام.

مرة طرقتْ بابي في الثالثة صباحاً, وعندما فتحت رأيتها منهارة تستند بممسك الباب كي لا تسقط، قلت: هل أوصلوك إلى هنا وانصرفوا؟

خرجت كلمات ميتة من ريقها الجاف: هؤلاء عليهم ألاّ يعرفوا بيتك, هذا هو المكان الوحيد الذي أشعر بأنني أطهّر فيه نفسي من الآثام.
دخلتْ على الفور إلى غرفة النوم, استلقت نحو ربع ساعة مغمضة العينين, وتحرَّكت بتكاسل ثم أخذت تتحدَّث وكأن الحكمة هبطت بغتة عليها, لم أكن أعلم بأن الإنسان يمكن له أن يصل إلى ذاك الحد المرعب من الألم الروحي ويكون قادراً على الحياة, اكتشفتُ فيها طاقة هائلة من تحمّل الألم, كانت في ذروة يقظة الضمير.
بعد قليل نهضت واتجهت إلى الحمّام, لبثت فيه نحو ساعة، وبدأت تشدو بأغنيات حزينة حتى انتشرت نبراتها البكائية الجارحة تحت جنح الليل وأظنها كانت مستلقية في الحوض بعد أن ملأته بالماء دون رغوة, هكذا كانت تقول لي بأن جسدها يرتاح في الماء النقي وتشعر بعد ذلك برشاقة وحيوية، وأن الماء يمتص من جسدها كل ما يمت إلى الكآبة.

كنتُ مستلقياً على فراشي أدخن سيجارة من علبة تبغها رغم أنني لا أدخن, ولكنها كانت لحظات بائسة نسيت فيها حتى أنني لستُ مدخناً.. تناهى صوتها من الحمّام: افتح حقيبتي ستقع على رسالة, اقرأها حتى أخرج من حمّامك الرائع هذا الذي لاأريد الخروج منه.

امتدَّت يدي إلى الحقيبة, رفعتها إلى أنفي شممت رائحة نرمين منها واكتشفت مجدداً كم أن قلبي مايزال ممتلئاً ببقايا حبها، وقعتُ على عدَّة أوراق مطوية بعناية, فتحتها وبدأت أقرأ, ولحسن الحظ أنني استطعت أن أحصل على نسخة مصوَّرة منها فيما بعد رغم أنها قالت بأن ذلك يُعد مغامرة, فهي رسالة سرّية للغاية تقوم بالإعداد لها لتكون مهمة جديدة, فأعطتني صورة منها بعد يومين.

رسالة كتبتها إحدى السيدات بخط يدها إلى مديرها في العمل, وقد ألححتُ على نرمين أن تعرّفني بها, لكنها أقسمت بأنها لاتعرفها, ولكنها بعد أن تعرَّفت بها لم تتردَّد بأخذي إلى إحدى الدوائر لتشير إلى امرأة جميلة يبدو الشحوب صارخاً في وجهها وهي تقول: هاهي السيدة التي أتعبتَني من أجل أن تراها, أنظر إليها جيداً علَّك ترتوي من النظر.
بالفعل كان النظر إلى تلك المرأة يجلب لي شيئاً من المعرفة, معرفة شخص تعرف عنه أسراراً شديدة الخصوصية والإحراج يظن بأنك لا تعرفها, فبدأتْ ذاكرتي تستعيد بنشاط وقائع قراءة تلك الرسالة وعيناي تتسمَّران في ذاك الوجه الوديع المتفجّر بحالة الاضطراب.
خرجت نرمين من الحمّام كفراشة وقد دبَّت فيها الحيوية من جديد وهي تقول: أي مكان آخر في العالم لم يكن بوسعه أن يخرجني من ذاك الموت الذي كان مستبداً بي غير هذا.
ثم بدأتْ تدخن وتبكي بحرقة، فأحضرت لها بعض اللبن وصرنا نشرب معاً, وضعتْ رأسها على وسادة وقالت: مسكين لن يرحموه، منذ أيام زرته فعرض علي مبلغاً كبيراً لقاء أن أدَّعي بأن ذلك كان افتراء، إنه أب لأربع بنات, واحدة متزوجة، خلَّفت له حفيداً, قال: هؤلاء يبتزونني وأنا لم أفرض عليك شيئاً, أنت قمت بعرض نفسك علي وأنا ضعفت هذه ليست نهاية العالم, يطلبون مني مبلغاً خيالياً ويهدِّدون حياتي لأنهم سوف يعلنون الأمر في القضاء حتى يسمع أهلك فيتدخَّلوا بطريقتهم, يمكن أن نتعاون لنتفهَّم الأمر فيما بيننا بطرق سلمية.

كان يتوسَّل إلي ويقول بأن ذلك قد يسبِّب له كارثة صحية لأنه يعاني من الضغط المرتفع، وما هذا الذي يقوم به إلا محاولات لتحقيق حالة من النشوة والهدوء من شأنها أن تخفِّف عليه الضغط. كان رجلاً بالغ الحساسية في الخامسة والستين من عمره، يحتسي الويسكي بهدوء تام، ويستمع لموسيقى بالغة الهدوء، ثم يتأمَّل جسدي ويضع نفسه في حالة عميقة من السكينة

والهدوء، يداعب شعري شعرة شعرة ، وأحياناً يدهن جسدي بالويسكي ببطء شديد.
أمام كل محاولاته التي لم تنفع معي فجأة تغيَّر الرجل وامتلأ شراسة وكأنه ليس ذاك الرجل الهادئ الوقور الذي أعرفه، صعد الدم إلى وجهه وانفجر يقول: لابد لهذه الاستفزازات أن تنتهي وستعرفين عندذاك إلى أي مدى أنت وغدة, وهذا الحقد الأعمى لابد أن يأتي يوم ويأكلك فيه, ثم خرج من دائرتي ليتحدَّث بصيغة عامة.
ولكنها كانت زيارة لجس النبض ولتسجيل صوته حتى يستوضح الرجل الأمر وإلى أي مدى يمكن أن يدفع ثمن السكوت, إنه من وجهاء البلد ومن أثريائه الكبار, يملك محَّلين لبيع الألبسة ومساحات شاسعة من الأراضي الزراعية ولن يضحّي بسمعته حتى لو كلَّفه ذلك نصف ثروته. لكنني مسحت العبارات الأخيرة من الشريط لأنها كانت ستودي به إلى ماهو أسوأ.
تمتمتْ بكلمات أخرى عبَّرت عن عدم رضاها بما تقوم به, ولكنها بدت مندفعة لاكتشاف ذاك النمط من الحياة وأن تعيشه فترة من عمرها, ثم خفتت نبرة الكلام في فمها، وراحت في غفوة كأنها غفوة فراشة.
في الصباح نهضتْ, صنعت فنجانَي قهوة, ثم أجرت اتصالاً هاتفياً مع أحد أعوان الرجل وانصرفت.
كنتُ حينها أنفتح للتو على حبك المدهش هذا, حبك الذي كان يحقق لي شيئاً من التوازن أمام هذا الطوفان وأنت تلميذة تذهبين إلى المعهد ببدلتك الكحلية وتعودين كطفلة في المرحلة الأولى, أتذكرين كل شيء يا رضوى, إصرارك على أن نلتقي في مكان لايرانا فيه أحد، وحديثك الطويل عن المستقبل, لكنني كنت تعيساً لأجل نرمين التي تنهار علـى يدَي ذاك الفظ الذي أفسد فتاة تنفتح للتو كفراشة علـى وردة, وأي غنى ذاك الذي ينشده, وأي غنى ذاك الذي تنشده نرمين.
في لحظة انقلبت مشاعري نحوها وانفجرت داخلي حالة من الشفقة تجاه امرأة تقوم بتدمير كل شيء جميل لديها, تدمر نفسها وجسدها ومستقبلها

وتطفئ الشمس من كل يوم جديد قادم لتعيش غائمة بكل ما لديها من وسائل تدمير, ورغم كل هذا فلم يكن هذا التدمير الذاتي يحيلها إلى كائنة شرسة بقدر ما كان يضفي عليها حالة كبرى من الرقة التي كانت تظهر حتى مع نبرات صوتها, وكانت بالمقابل تدفعها لحالة عجيبة من العطاء والمحبة لنماذج بسيطة من الناس الذين تلتقيهم.

على هذه الأوتار تواصلت علاقتي بها وأنا أنظر في /الجانب الآخر/ الذي كان خفياً والتي تركت نرمين له العنان ليأخذ مداه دون ضابط ودون أي محاولة منها للضبط أو للمواجهة.
كنتِ دوماً تقولين لي أن لاغنى يفوق أن يدخن المرء سيجارة مع بعض شراب وسماع موسيقى عذبة ورأسه في حضن من يحب ولو كان في خيمة مهجورة.
في الأيام الأخيرة شعرت بأنها تريد الابتعاد عن هذا الدرب, وتسعى إلى ذلك بقوة, لكن الرجل قال لها بأنه يقود حملة جادة نحو تطهير المجتمع، وبذات الوقت يستفيدان معاً من هذه الحملة ببعض المال وهذه ليست جريمة لأنهم لا يصطادون إلاّ الذين يستحقون أن تُدمى شفاههم بالصّنَّارة. ثم نظرت إلي وقالت: أعرف جيداً بأنها حملة ابتزاز لن تنتهي على خير, وأن هؤلاء لا ذنب لهم سوى أنهم يحبون الحياة ويريدون الاستمتاع بأوقاتهم، وأن ذاك الرجل يستغل سلطته القوية في هذا الابتزاز.
لكن أمام محاولات الخروج قال الرجل بأنه يملك أدلّة تدينها وتجعلها تمضي سنوات في السجن إن حاولت اللعب بذيلها, ويمكن له أن يسبّب أذى لجميع عائلتها, سوف يجعلها صفحة سوداء في التاريخ: هي فترة قصيرة ستكونين معي وبعدها اذهبي إلى الجحيم، لن تلزميننني بعد ذلك, ولن تحلمي برؤيتي, أنت كنت متسوّلة والآن تتمتعين بكل شيء, هل ضاقت عليك الرفاهية وتقتِ إلى التسوّل يا ساقطة, هل فرضتُ عليك أن تعملي معي, أنت رغبتي

بالتطوع وأنا قبلت. ثم صفعها وبصق على وجهها ودفعها بقدميه إلى الخارج.
قلت لها: ألا توجد لديه صنّارات أخرى؟
قالت: الصنّارة لديه عمرها سنة واحدة وإن عمَّرت طويلاً تبقى سنتين حتى يقع على البديل, ثم بعد ذلك تنزل إلى الدرجة الثانية فيستلمها مَن هم دونه, وبعد سنة أخرى تنزل إلى الدرجة الثالثة ليستلمها مَن هم أدنى منهم رتبة, وهكذا إلى أن تبلغ الدرجة العاشرة فينزل ثمنها إلى صندويشة فلافل.

الآن أنا بالنسبة إليه في الدرجة الأولى لأنني جديدة في الساحة, ولن يتخلَّى عني بسهولة قبل أن يحيلني إلى الدرجة الثانية ليستلمني مَنْ هم دونه, أنا التي أدخَلَتْ نفسها في فخاخه وعلي أن أتحمل المسؤولية وأدفع ثمنها بمفردي.
ثم غارت الدموع من عينيها وطلبت مني ألاّ أتخلّى عنها وأن أقدّم لها ما يعينها للتخلّص من هذا السبيل, ولكنني كنت عاجزاً عن تقديم أي مساعدة, فرأيتني أتعاطف معها ونخطّط معاً للهروب من براثن ذاك الرجل الذي لم يكن ينظر إليها سوى أنها صنّارة يصطاد بها الضحايا, وبدأت تتباطأ في تنفيذ مهماتها, وأحياناً تنقذ ضحاياها في اللحظات الأخيرة, ولم تكن تهتم بأناقتها ومظهرها كما كانت, بدت جندية كسولة فأشجّعها وأقول لها: يمكن أن تقومي بأي عمل, أوحتى تجلسي في البيت وأنا سأتقاسم معك ما لدي, لاتظني بأن شيئاً يحقق السعادة للإنسان أكثر من نقاء الروح، ولاتظني أن شيئاً يسبب له التعاسة أكثر من مدارج الانحطاط.
لن تربحي شيئاً وستخسرين كل شيء, والعودة من منتصف الطريق محمودة, أريد أن تواجهيه وتعلني عليه العصيان وعندها سوف ييأس ويفكّر بالتخلّي عنك.

لم تكن تتحدَّث بكلمة واحدة عندما كنت أنفجر في وجهها بكلامي, فقط كانت تنظر إليَّ وتبكي وكان بكاؤها يحرقني لأنني أحببتها ذات يوم بقوة، وقبَّلت ذاك الوجه ذات يوم بقوة الحب الذي كان كامناً في أعماقي نحوها.
استطاعت أن تفجّر في حواسي طاقة هائلة من الحب, لقد أحببتها بعنف وضممتها إلى صدري بعنف, وقبَّلت فمها ويديها بعنف.

إنه الموت المر يا رضوى الموت الذي يرعبني, هل مات كل ذاك الحضور, إنني حزين ومشتاق إلى تلك المرأة التي كانت الأكثر حزناً وكآبة في هذا العالم.
كان حلمي دوماً أن أراها في إحدى الحدائق تقود عربة صغيرة تحمل طفلها وإلى جوارها زوجها, كان ذاك المنظر سيسحرني, ويجعلني أعود إلى البيت أدعو كل أصدقائي إلى وليمة بهذه المناسبة التي كنت سأخفيها عنهم, لكنها ذهبت وأخذت حتى هذه الأمنية معها, فقط شبحها بقي بين الجدران, شبحها الذي يفزعني ساعات الليل الطويلة فأهرب إلى قبرها وأنا أتخيَّل بأنني سأعود ممسكاً بيدها معي, أعود بها من تيه كانت فيه, وهي كعادتها في ذروة الإرهاق وصفار الوجه وارتعاش الأعضاء، ثم بعد قليل تدخل الحمّام تمضي فيه وقتاً وتخرج متألقة.
كانت صغيرة جداً, كانت طفلة جداً, كم هو موحش هذا العالم الذي يتم فيه اقتطاف وردة في ذروة تفتحها، لكن يبدو بأنها كانت مسرحية قصيرة تركت فيها بطلتها عشرات الضحايا, وسمعة سيئة, وذاك الاعتداء الموحش.

كنتُ واحداً من الرجال الثلاثة الذين اصطحبوها إلى المقبرة, حتى أن أحداً لم يتبرع ليغسلها، وكانت هناك عبارات استنكار لدفنها في المقبرة إلى جانب الأتقياء والطيبين، ولكن هؤلاء لم تكن لديهم سلطة لتنفيذ ذلك، ولم يفتح أهلها خيمة عزاء لأنهم أدركوا أن لاأحد سيدخل ليعزيهم بابنتهم سيئة السمعة, وأصارحك بأنني التقيت بعشرات الأشخاص الذين رفضوا حتى أن يقولوا

/ليرحمها الله/ وكانت العبارات تقع على سمعي كاللهيب: /كانت كائنة مؤذية/. ولم يخطر للرجل أن يأتي ليعزي بجنديته, أوحتى يرسل وردة إلى قبرها, وعدنا دون أن يلتفت أحد إليها غيري, عدت إلى البيت وبدأت أقرأ القرآن وأصلي وأبكي حتى الصباح من أجل روحها.

والآن لم يبق من نرمين غير ذكرياتها الأليمة معي, عندما علمتْ بسفرك شعرتْ بأن بابي انفتح أمامها مجدداً, وأنها ستملأ الفراغ الذي تركتيه.

تحوَّلت نرمين بين غمضة عين وأخرى إلى ذكرى حدث في الماضي، وأصبحنا نحن أكثر التصاقاً بالواقع لأننا نعيشه من بعدها, مازلت أقول لك بأنني أدينها حتى وهي ميتة, وقد ارتكبتْ أخطاء ليس بوسعي أن أبررها, الذي يعنيني بالدرجة الأولى ذاك الابتزاز, وذاك الضرر الذي ألحقته بأولئك الذين رغبوا في أن يمضوا وقتاً ممتعاً معها, أو لأقل ليشتروا هذه المتعة منها بأموالهم بعد أن قامت هي بعرض تلك المتعة عليهم, وألحَّت في كثير من الأحيان حتى تستدرجهم إلى ذلك.

الفصل الخامس

أجل يا رضوى إنها خسارة الحب الذي لا يمكن تعويضه بأي شكل وأي لون، الحب الذي إن طردناه من قلوبنا امتلأت حقداً, الحب هو الذي يبقى حارساً أميناً على القلوب لئلا يدخلها الحقد, ذاك الحقد الذي يجد سهولة ولوج للقلوب التي لاحب فيها.

أظن بأنني سأقول المزيد, ولن أجد رغبة لإغلاق الخط بسرعة, لتكن أطول مكالمة في العالم ولتحترق أعصاب لصوص الأحاديث الذين يسرقون كلماتنا، ليس من سبيل أمامنا إلاّ القوة, القوة التي علينا ألاّ نتنازل عنها, لنكن شجعاناً, لتكن رؤوسنا مرفوعة, ونواجه كل اغراءات وتعقيدات وسخافات العالم, لنخطّط دوماً كيف نرتفع إلى الأعلى, إلى الأقوى, إلى ماهو أكثر بساطة وأكثر إشراقاً، ولنقتلع من أعماقنا كل نزعات الضعف والسقوط والاغراءات والخيانة.

علينا أن نعيش الحياة بسعتها وبضيقها, أن نكتشفها وأن تكون لنا، ونحرص ألا يضيّقها أحد علينا, أونضع مفتاح حياتنا في أيدي الآخرين.

أظن أنه من حقنا أن نعيش هذه الحياة بطولها وعرضها دون أن يسبب ذلك الألم للآخرين، بل أن تكون في حياتنا منفعة لهم.

بالنسبة للاضطرابات النفسية الحادة التي تكاد تسيطر عليك بعض الأوقات, فهذا أمر طبيعي وهو عابر لا يستقر إلى الأبد, يمكن أن تعقدي صداقات عميقة وطويلة معها وأن تتوقي لها عندما لا تأتي, فهي حالات انتقالية وجودها يحقق التوازن حتى لحاسة النظر والسمع, واعلمي أن قوة العواصف وزمهرير الشتاء وذروة ارتفاع حرارة الصيف تبث الروح في الطبيعة ليتشكَّل ربيع بكل ذاك التألق.

إن الأرض لو لبثت على فصل واحد لكانت كوكباً لا يُحتمل, وكذلك الإنسان لأن الأرض حينها لم تكن لتحتمله وهو بكل ذاك البرود الروحي..

تبقى الحياة متألقة حتى وهي تقودنا إلى ذروة الألم, الألم الذي هو ملح للحياة وبدونه تفقد الحياة طعمها, إنه هو الذي يمنح للسعادة كل تلك القيمة وتلك اللذة, وأمام كل هذا فإن لحظات السعادة في الحياة هي أكثر من لحظات البؤس, والإنسان في النهاية يكون قد ضحك أكثر مما ذرف الدموع.
تبقى الحياة تحمل الدهشة لكل المخلوقات الحياتية لأن أبواب المستقبل تبقى مفتوحة ولا تنغلق في وجه أحد.
هل تستمتعين بالحياة يا رضوى, هل ترغبين بالطيران في لحظات مجنونة ما, هل تمارسين الجنون وتحطمين ما يقع في يديك, وتقولين للمتصل بالهاتف: أغلق لأنني لست مهيأة لاستقبال شيء, هل تنهضين في منتصف الليل تشعلين سيجارة وتضعين كأساً من الشراب, وترفعين صوت الموسيقى إلى الأعلى.

لا أعرف لماذا لا تغيب صورة ذاك الرجل الذي التقيته مؤخراً في بيت أحد أصدقائي, كان رجلاً شديد البساطة والطيب والبراءة, وتبقى البسمة أولأقل الضحكة الخفيفة ملازمة لفيه الذي كان يُظهر مواضع أسنان مخلوعة.
قال صديقنا بأنه يجلس معه في لحظات اليأس فيستعيد من خلال النظر إليه بساطة الحياة وروعتها وأظن بأنه كان يناديه (خليل) وهو رجل أمي في الخمسين ينتظر المواسم ليعمل, في موسم الحصاد يعمل خيّاطاً لأكياس الحبوب, وفي موسم القطن يعمل شاويشاً للعمال في قطاف القطن, ويعمل بشكل متقطع في بيوت بعض الذين يعرفونه فينقل الرمل, أو الإسمنت, أو الحديد, أو التراب, أو يحفر حفرة فيعيل زوجته وبناته الثلاث.

قال صديقي: خليل هو شعرة التوازن بالنسبة لي، فقال خليل: في الثانية والنصف من بعد ظهر ذاك اليوم التموزي الحار كنت عائداً إلى البيت من نقل مئة كيس إسمنت على ظهري إلى الطابق الرابع في إحدى البنايات الجديدة، وفي الطريق شعرت بإرهاق وأنني لم أعد قادراً على المشي,

وخطر لي أن أركب سيارة أو سرفيس ليوصلني إلى بيتي, لكنني قلت لنفسي: يا خليل الأولاد أولى بهذا الثمن, ستجلس قليلاً ثم ستنهض كحصان إلى بيتك، ستعطي هذه الأجرة لأولادك الذين سيفرحون ويشترون البوظة من الدكان.
بحثت بنظري إلى مكان يمكن أن أقعد فيه بعض الوقت, وأنا على وشك الجلوس بفيء إحدى الجدران, ظهرت نسوة فقلت لنفسي حتى يذهبن لأن جلوسي هكذا في الشارع أمامهن لا يجوز وقد يوحي لهن بأنني جالس أتسول, وإذا صدف وعرفتني إحداهن ستكون المصيبة أعظم, سوف تقول لكل من يعرفني بأنها رأتني أتسول أمام إحدى الجدران في المدينة.

أوليت الحائط ظهري وراقت لي هذه الوضعية المريحة التي ربما لأنها أوحت للنسوة بأنني واقف ومستقر في الوقوف ولا أنتظر اختفاءهن لأجلس, وبقيتُ واقفاً إلى أن مررن بجانبي, ولسوء حظي رأيت رجلاً عجوزاً يظهر من أول الشارع, فخجلت مرة أخرى وقلت: ليذهب هو الآخر أفضل من أن يخطر له بأنني متسول, وتمهلت حتى مضى, ثم سمعت صوتاً يناديني بقوة، وعندما التفتت رأيت جاري (محمد خالد) يتمهل بالبسكليت ويشير إلي بيده.
تركتُ الحائط وهرولتُ إليه قائلا في سري: جاء فرج الله.
جلست على المقعد الخلفي للبسكليت فانطلق محمد خالد بي وهو يقول: انتبه مرة أخرى ياجاري، لاأحد يعرف بأنك لاتجيد القراءة.

مانزال ندفع الضرائب الكبرى, يدفعها صغيرنا كما يدفعها كبيرنا , إننا في دفع الضرائب سيان.
يمكن لك أن تتحرري من هاجس الخوف لأن هذا العالم هو لك وأنت تدفعين ضرائبه, وأنك تمنحيه أكثر مما تأخذي منه.
الذي كان وسوف يكون هو أنت, والذي يعيش وسوف يموت هو أنت, فلتكن خطواتك أكثر ثقة, وليكن وجهك أكثر إشراقاً, ولتكن كلمتك أكثر سماعاً,

ولتكن لحظاتك ممتلئة بالحرية, ولتكن يدك طويلة لاقتلاع كل الأشواك العالقة بالروح, الحياة غاية في القسوة هنا, العلاقات الاجتماعية صعبة, الصداقات صعبة, فرص العمل صعبة, الزواج صعب, الحب صعب, ويبدو لي أحياناً حتى المسير لخطوتين في شارع ما يحمل روح المغامرة.
ليس من السهولة أن يجلس المرء في حديقة ما ويستمتع بوقته دون أن ينتابه شعور بالخوف من أي شخص يلتقيه, وحتى لو ابتعد إلى صحراء فإن مجرد صوت سيارة أو كلب يحمل إليه الفزع, ولكنني لا أبالي بشيء وأمتلك قدرة كافية على المغامرة في سبيل أن أعيش وأن أتعرف بالآخرين الذين أبحث عنهم والذين يخففون من وطأة هذه القسوة التي أعيشها لحظة بلحظة.
لكن ماهو أهم من كل هذا هو أنني أحمل قلباً عاشقاً يمكن له أن يتمتع بالموسيقى, يمكن له أن يطير فرحاً وهو يرى لمسات جمالية, كل شيء يأخذ طابعاً سحرياً بالنسبة له, حتى العادات التي كانت تؤذيني فإنها تكون أخف وطأة وأنا أحمل هذا القلب الذي يمتلئ بحبك, يمكن لي أن أسهر حتى الصباح وأنا أستمع لأغنياتنا القديمة التي كنا نسمعها, يمكن أن أتخيل أحاديثنا الهاتفية, أتذكرها كلمة كلمة, أتذكر كل تلك الآلام التي سببتها لك وأنا أقول: لكن حبنا هو كالطبيعة لابد أن يمر بمختلف الفصول, أن نتشاجر في فصل... أن أحملك وأملأ وجهك بالقبلات في فصل... أن يكون حبك برداً ودفئاً وشمساً وقمراً... أن يرفض الجمود في حالة واحدة حتى يلبث في تجدد دائم.

إنني أرفضه وهو يكون بارداً كما أرفض استقرار فصول السنة في فصل واحد حتى لوكان هذا الفصل ربيعاً, سيكون بعد سنة واحدة ربيعا مملاً, أجل إن هذا يغرز الأشواك في حبنا ولكنني في فصل قادم أمد يدي لأقتلع كل الأشواك فتكونين ربيعاً بهياً بعد عواصف وصقيع وخريف.
مازال في الاتصال بقية... مازال في همسات العشق بقية... جاء هذا الفراق ليمنح حبنا فرصة كي يعيد سموه, كنا في بعض نقاشات ساذجة نجرح

حالات الرقي التي بُني عليها حبنا وكنت أراه حزيناً مترفعاً عن وقائع لم يكن يرغب أن يرانا فيها أو نراه فيها, بيد أن الواقع كان يدفعها إلينا, جاء هذا الفراق ليستعيد حبنا كل حالات الرقي التي عرفها وعاشها؛ أجل يا رضوى الواقع المر لا يفرز إلا المرارة, ولا تأخذ الورود شكلها الأرقى إلا في تربة صالحة وهواء نقي, كنا أحيانا نمضي ساعات في نقاش نكتشف بعده بأنه كان نقاشا فارغا لامعنى له، وكان يمكن له ألاّ يكون، لأنه لم يقدّم لنا شيئاً, أجل فإنني أعني هذا بالذات, عندما قلت لك بأننا يمكن أن نعيش في خيمة بعيدا عن كل تقنيات عصرنا مادام كل واحد سيفتح عينيه صباحا على وجه شخص يحبه كل الحب ...كنت أمقت أن نمضي في نهج أتحاشى المضيء فيه ويدك في يدي, لأن البدايات البائسة لا تفضي إلا إلى نهايات أكثر بؤسا, حتى مظاهر الأعراس كنت أستاء منها خاصة عندما كانت الأصوات ترتفع لتزعج الناس حتى منتصف الليل, وكانت الأغاني لا تحمل إلا النشاز إلى سمعي.

كنتُ أدرك بأن هذه المظاهر هي بعيدة كل البعد عن الحقيقة, وكنت دوما أردد: يا إلهي كيف لعروس ترقص الليلة في عرسها وهي ممتلئة بشخص آخر, وكيف لشخص أن يتقبل تهاني المهنئين وهو ممتلئ بامرأة أخرى, ثم كيف سيكون سعيدا وقد أثقلوه بالديون؟!

في بعض المواقف الأخرى كنت أرى بأن الرجل هنا يشتري المرأة قبل أن يتزوجها, والمرأة تدرك ذلك جيدا وتقبل به, ولذلك فإنها تبقى مسكونة بهاجس أبدي أن زوجها سوف يشتري امرأة أخرى أكثر نضارة, وهذا ما يفسد عليها حياتها الزوجية ويجعلها غير مستقرة مدى العمر, ولا يخلو الأمر من ردات فعل سلبية من ناحيتها وبذات الوقت تسعى إلى الإتلاف ما أمكنها فقط حتى لايملك الرجل قيمة امرأة أخرى لأن الهاجس سيتضاعف عندذاك وهي تخبر جيداً بنيتها الاجتماعية التي انطلقت منها فتعيش الأسرة حياتها في وضع اقتصادي منهار.

حتى النظرات هنا كانت تجرحنا في حبنا وكانت تجرح حبنا فينا, أحياناً وفي حدة المعاناة كنا نتحدث حتى في الهاتف كاللصوص, ونقتنص أي فرصة لنزولك إلى السوق لنلتقي ولو من بعيد. كان هذا مؤلما, لم نكن نرغب في أن يتدخل أحد في تفاصيل علاقتنا وكنا نخشى ألا يتحدث عنها باحترام. كانت حرارة حبنا قد ارتفعت قليلاً, وكان لابد من بعض برود حتى تنخفض درجات تلك الحرارة, كنت بارداً معك في بعض مراحل الحديث واللقاءات, وكنت أحاول أن أتصنع ذاك البرود الذي كان ينفجر حباً عندما أعود إلى البيت وأستعيد كل كلمة, وكل نظرة باردة نظرتها إليك, وفي لقاءات أخرى كنت أسارع في تقديم الورود إليك, وتقديم ولو هدية رمزية تعبر عن اعتذاري, وأحياناً كنت أمضي في الطرقات وأنا أفكر بهدية يمكن لها تكون جديرة بتقديمها لامرأة سحرية مثلك, ودوماً كنت أفشل في الوصول إلى تلك الهدية, وأقول: كل هدايا العالم تفشل في أن تؤدي هذه المهمة لامرأة مدهشة بحجمك, ولذلك لم أتردد تلك الظهيرة في ذاك المكان الهادئ وأمام صديقتنا أن أطبع قبلة شوق على يدك رغم الخجل الذي انفجر في وجهك, ولا أدري لماذا سحرني جمالك في ذاك اليوم, كانت ملامحك مستقرة وهادئة, ويومها اكتشفت بأنك تزدادين جمالاً، وأن وردة جمالك تتفتح وأنت هادئة تجلسين في ركن هادئ, ولكن يا إلهي هل يمكن لي أن أحب امرأة أخرى, وهل سيكون بوسعي أن أكون سعيداً وأنا أحاول أن أحبها, أظن بأن الإنسان يحب مرة واحدة بكل قوته في العمر سواء أتى هذا الحب سريعاً أو متأخراً, سواء أتى في بداية العمر أم في منتصفه أم في نهايته, لكنها مرة واحدة لن يكون بمقدور القلب أن ينفتح لحب آخر بكل تلك القوة, وكل ذاك العنفوان.

أعترف لك لأول مرة بأنك ذاك الحب الذي يرفض بكل قوته أن يتحول إلى ذكرى، كانت القبلة على يدك المباركة محاولة مني للاعتذار عن كل لحظة ألم سببتها لك، كان الرعب يملأ كل حاسة فيّ وأنا أتخيل خسارة الحب, تلك الخسارة التي هي نهاية العالم بالنسبة لي.

أتذكرين يوم قلت لك أن نؤجل لقاءاتنا وحتى الأحاديث الهاتفية اليومية التي اعتدنا عليها, كانت دموع الحب تنهمر من قلبي وأنا أقولها لك, يومها قلت لك أن نكتفي بالحديث ليوم واحد في الأسبوع, لكنني كنت كلما سمعت رنين الهاتف قلت بفرح طائر: إنها هي. وكان الرنين يملأ حواسي نشوة, إنه رنين الحب, رنين من أحب وسوف يحمل إلي نبراتها المباركة وهي تفجر أشواقها في سمعي وتسمعني كلمات شوق جديدة لم تسمعني إياها من قبل, لكن سرعان ما كان يخفت نداء ذاك الفرح مع أول نبرة صوت آخر, فيردد القلب الملتاع شوقا: ولكن هل ستستطيع أن تحتمل أسبوعاً كاملاً دون سماع صوتها؟

وكان الحب هو الذي يدفعك لاختراق الاتفاق بعد يومين وتنفجرين غضباً في السماعة: ليس من حقك أن تحدد مساحة شوقي إليك, أنت حر في مشاعرك وشوقك وحبك, لكنك لست حراً في تحديد وتجميد مشاعري التي أعجز عن تحديدها, كل شيء في يطير إليك دون أن أكون قادرة على أي محاولة للتحكم. ثم بخفوت , بمزيد من خفوت تتمتمين: صدقني اشتقت إليك.

كان ذاك الرنين أحب رنين إلي لأنه كان رنين الاختراق, رنين التحدي, رنين انتصار الحب على كل القوانين والشروط والاتفاقات. ومجدداً أبحث عن أسبوع واحد لا أراك ولا أحدثك فيه, أشعر أن قلبي بات ملغوماً بحبك, وأنه لن يحتمل كل تلك الشظايا التي تصيبه حتى وهو نائم, أجل هناك شظايا للحب عشتها معك واحترقت بها, كان قلبي يترنح تحت ثقل حبك, ويصرخ بأن أفعل شيئاً يخفّف عنه, كان حجم الحب يغدو أكبر من أن يستوعبه هذا القلب الفائض, أجل كان يرتعش حباً ويذرف الدموع حباً, وكنت في محاولات بائسة أخرى أهرب من حبك إلى البراري, إلى الأنهار, إلى المدن البعيدة, ولكن في أول محطة أراني لائذاً بأقرب هاتف لأسمع نبرات صوتك السحري وقد تملّكني الإدمان عليه.

كنت أريد أن أهرب منك وأن أكون معك في ذات اللحظة, الهروب لأن خوفاً رهيباً كان يتملّكني وأنا أتخيل انطفاء الحب في قلبينا, والبقاء حتى أكون مطمئناً عليك وأنت بالقرب, كان القرب منك يعني الأمن والدفء, وأن ثمة امرأة أحبها في هذه المدينة, ومن الضفة الأخرى تلاحقني عبارات نرمين الحرائقية وهي تشكو فراغاً عاطفياً, وتكاد تتسوَّل أي رجل تلقاه في الشارع: ولكن هل هو سيقبل أن أتسوَّله ياعزيزي.
كان هاتفها يوقظني في الثالثة صباحاً لتقول بأنها لم تعد قادرة على العيش بدون رجل يحبها وأنها تفكر بالانتحار, وتصوّر لي كيف أنها تمد أناملها إلى مأخذ الكهرباء في الثانية صباحاً, لكن بصيص الأمل المتبقي في القلب يمنعها في آخر لحظة, فتتخيل بأنها سترى رجلاً يحبها حباً قوياً ويملأ هذا الفراغ العاطفي المدمر الذي يقتل كل شيء جميل في الحياة.
كنت أقسو أحياناً حتى أكون بعيداً, وتكوني بعيدة, كانت قسوتي بحجم حبي الكبير الذي يزلزل كل ذرة فيّ ... كنت أريد أن أجرب كل الحالات في حبك ،، أن أحبك وأنت مشمسة ،، أحبك وأنت غائمة ،، أن أجرب الحنين إليك وأصابعي ترتعش في أصابعك عشقاً،، أن ينفجر الحنين وتفصلنا مدن وبحار وجبال،، كنت أريد أن أحطم كل القيود من طلاقة حبنا لنحلق بجناحيه، وننتقل من شجرة إلى شجرة.

باتت الحياة مقترنة بوجودك فيها حتى وأنت تصرين على تسمية ابننا، أو ابنتنا منذ الآن وتقولين أنك ستحملينه تسعة شهور، ستكون من أمتع وأثرى شهور حياتك لأنك ستعيدينني جنيناً وتحمليننني وتحبلين بي, ستعيدين تربيتي وتلبسينني الصدرية وتعلقين حقيبة مدرسية في كتفي ولن تنسين وضع السندويشة واعطائي الخرجية وتوصينني ألا أبتاع الحلوى المكشوفة في الطرقات.
بالطبع ما كنا اتفقنا عليه بالنسبة لعلاقتنا يقدم لي الشيء الكثير للتخفيف من وطأة المعاناة التي تبلغ في بعض المراحل ذروة الحدة, كنا اتفقنا على تقديم

التنازلات حتى تستمر العلاقة بيننا, أن أغمض عيني عن أشياء لا تعجبني وأمتلك شجاعة لتجاهلها في سبيل استمرار روح علاقة الحب الكبرى التي تجمعنا.

أجل يا رضوى إن أي علاقة بين كائنين لن تستمر إن لم تبن على تنازلات من الطرفين, وبخاصة تلك العلاقة البدائية بين شخصين يتفقا على حياة زوجية مستقبلية, حتى الحياة الزوجية فإنها لن تستمر إذا لبث كل شخص ينتظر إشارة سلبية من الآخر ليتخذ بها موقفاً سلبياً.

إن قوة روح التسامح تعبر عن قوة روح الحب والإصرار على الاستمرار معاً, والذي لا يملك قدرة على التنازلات والتسامح، لن ينجح حتى في أن يتخذ صديقاً يمضي معه يومين في رحلة, على ألاّ تمس هذه التنازلات المبادئ الكبرى، ولذلك لم أستطع أن أتسامح مع نرمين لأن الأمر بالنسبة لي كان أكبر من أن أكون قادراً على تجاهله, ولكن في النهايةِ فتحتُ بابي لها ولم أكن قاسياً عندما اتجهتْ إلي, فقلتُ بأنني أستقبلها بدون أي خصوصية, وقد سقطتْ كل ذاك السقوط، فوضعتْ نفسها في الموضع الذي رأته مني وكان من حقي أن أتخذ موقفي من تلك العلاقة, وأوافقكِ عندما تقولين أن مَن تفشل في أن تكون حبيبة، لن تنجح في أن تكون صديقة, وكذلك لن تنجح حتى في أن تكون عشيقة, لأنها إن تحولت إلى عشيقة لكان كل ذاك الحب السابق نفاقاً, أو أنك لسوف تدنس شيئاً كنتَ تنظر إليه بقدسية وعندها سوف يكون الخوف والحذر منك لأنك يمكن أن تدنس فيما بعد أي مقدس.

ما تزال كلماتكِ تتردّد في سَمَعي، ولم يسبق لي أن نظرتُ إلى نرمين لحظةً بأنها سوف تمسي عشيقة، وأن مجرّد تخيّل ذلك يبعث في نفسي القرف، وعندها لن يكون هناك خلاف بيني وبين أي شخص يقوم بتلويثها.

لا أخفيك بأن التواصل معها كان يُسبب لي آلاماً، وأنني في كثير من الأحيان كنتُ أتحاشى حتى سماع صوتها، ولم تكن لدي الرغبة لاستقبالها، لكنها عندما كانت تأتي، كنتُ أراني أفتح لها الباب بلا رغبة، لأنها لم تكن تدخل بأي صفة تعنيني، ولكن يبدو بأنها حالة من الشفقة على حب مضى, ورغم كل هذا أعترف بأنني تعلمتُ منها أشياء هامة, ودوماً أردد بيني وبين نفسي أنه لا يوجد موطئ قدم للانهزاميين في عالمنا.. علينا أن نروّض أنفسنا لاكتساب أكبر قدر من القوة والشجاعة لمواجهة مختلف الظروف ودوماً ألاّ نسمح لأحد أن يتدخل في قراراتنا الأكثر خصوصية وشخصية, أن تحدث هذه القرارات الكبرى التي تخص بناء الشخصية في دائرة غاية في السرية.

عندما تذهب نرمين إلى صديقة لها، فتعرض عليها فكرة بناء علاقة مشبوهة, هذا يعني بأنها رغبت في ذلك, ولكنها تبحث عمن تبارك لها هذه الرغبة, كانت كلماتها الأولى تجرّدها أمامي حتى قبل أن تغرق في ذاك العالم, كان ذلك يعني بالنسبة لي أنها لسوف تسلك نهج الانحراف مادامت تلين للفكرة .

الفصل السادس

تطلبين أن أحدثك مالم أحدثك به عن نرمين, بالطبع إنها عالمٌ من الألغاز وكنتُ أكثر الناس قرباً إليها، وليتني لم أكن ذلك ولم أكن تعرفت بها، ولكن يبدو بأن رغبتي في الحديث عن امرأة غريبة تعرفت بها السنة الماضية في دمشق تلح، وقد تعمدتُ تأجيل الحديث عنها في المرات السابقة.

قمتُ بزيارة إلى دمشق لقضاء أسبوع للترفيه عن النفس، وهناك رأيتني أدخل إحدى الملاهي الليلية، جلستُ إلى مائدة، وطلبتُ طعاماً وشراباً، أردتُ أن أدخل إلى تلك الأجواء وأمضي فيها ليلة.
أناس كنتُ أراهم لأول وهلة، قهقهات، موسيقى، رقص، روائح الكحول، دخان السجائر، أناس يخرجون بأجساد مترنحة، وعيون حمراء، أناس يدخلون، ينتقون الموائد لحجزها.

لفتت فتاة جميلة تدخن النرجيلة نظري, لا أدري لماذا راودتني رغبة في التعرّف إليها, ولكن فيما بعد عرفتُ بأن الوحدة كانت السبب، فقد كنتُ الشخص الوحيد الذي يجلس إلى مائدة بدون صديق أو صديقة, كنت كاليتيم, كان المكان صالحاً أو لأقل معدّاً تماماً لقضاء ساعتين أو ثلاث في متعة, وعندما انتقل البرنامج إلى الرقص، نهضتْ تلك الفتاة متقدِّمة إلي، وطلبت مني أن أشاركها الرقص الهادئ، ورغم أنني لا أجيد ذلك, بَيدَ أن رغبة الاستمتاع بالليل هي التي دفعتني للاستجابة.
أمضينا نحو نصف ساعة دون أن يتحدَّث أحدنا للآخر، ولأول مرة اكتشفتُ كيف يمكن لي أن أكون مسترخياً وأنا واقف على قدمَي، كنتُ أظن قبل ذلك أن حالة الاسترخاء دوماً تقترن بالاستلقاء على الظهر، أو على الأقل بجلوس مريح، لكنني في تلك اللحظات أدركتُ أن حضن المرأة يحقق للرجل حالة الاسترخاء مهما كان وضعه معها.
بعد أن انتهى برنامج الرقص، استأذنتني المرأة كي تشاركني الجلوس إلى مائدتي، فأومأتُ لها رأسي بالإيجاب.
بدأتْ تتحدَّث، وتُدخلني إلى عالمها، وأنا أصغي إليها بانتباه شديد، واقول في نفسي: إنها امرأة، تعبق برائحة كل امرأة، ولا توجد امرأة لا يتعرَّف من خلالها الرجل على كل مَن سيلتقي من نساء بعدها، كل امرأة يمكنها أن تعرِّف الرجل بما لم يكن يعرفه عن مزايا المرأة.
استمر حديثها المتواصل معي حتى بلغت الساعة الثالثة صباحاً، عند ذاك اقترحتْ علي أن أصحبها إلى شقتها المفروشة التي استأجرتها، بدلاً عن عودتي إلى الفندق.

عندما استلقينا على السرير، وسط ضوء خمري خافت، أحسستُ برغبة فيها، لكنها أفسدتْ رغبتي عندما طلبتْ مبلغاً من المال لقاء ذلك. في تلك اللحظات لم أملك سوى أن أنهض من السرير وانا أوبخ نفسي على ما انجررتُ إليه.

تقدَّمتُ من البنطال الذي كنتُ قد وضعته جانباً، امتدَّت يدي إليه بسرعة، ثم أخرجتُ محفظة النقود، وقلت: هذه المحفظة فيها نحو عشر مرات أكثر من المبلغ الذي تريدينه ثمناً لذلك، خذي منه ما تشائين.
قذفتُ المحفظة إليها، ثم رحتُ أتمدد على الكنبة، وقد أوليتها ظهري.
كانت المرة الأولى التي أواجه فيها موقفاً كهذا، وعندما تقدَّمت المرأة إلي وصارت تبكي وتشرح لي أن الحاجة دفعتها إلى ذلك، وأنها إن لم تُسدّد أجرة الشقة سوف تنام في الشارع، وهي لا تملك عملاً، وأن ظروفها القاسية هي التي دفعتها إلى ذلك، فلم أجبها، وطلبتُ منها أن تتركني أنام، وإن أصرَّت سوف أعود إلى الفندق، فراحت هي أيضاً تستلقي على الكنبة المقابلة وهي تتمتم: لا أنام على ذاك السرير، وأنت تنام على الكنبة.
راودني إحساس بأن المقابل الذي طلبته لتلك العلاقة الإنسانية، أفسد روح تلك العلاقة، وأخرجها من إطارها الإنساني رغم إدراكي أن مجرَّد حدوث تلك العلاقة دون عقد زواج هو بذاته شرخ في تلك العلاقة الإنسانية، لكن الثمن المادّي كان من شأنه أن يُجرِّد تلك الممارسة من أي علاقة إنسانية، ويجعلني أشعر بأنني أنام مع جثة، فكيف لي أن أستغل الحاجة المادية لامرأة نظير تلك الرغبة، وأي متعة ستتحقق في انحطاط أخلاقي كهذا.

عندما استفقتُ كانت الساعة تُشير إلى الحادية عشرة ظهراً، ارتديتُ ثيابي، وعند ذاك لفتت نظري محفظة النقود التي كانت قد وضعتها بجانب الثياب، وضعتها في جيبي، وأردتُ الخروج، لكنها أصرَّت أن نتناول الفطار معاً، ويبدو أنها كانت قد خرجت وأنا نائم، وأحضرت بعض المناقيش الساخنة، ثم أعدَّت إبريقاً من الشاي.
عندها قدَّمتُ لها اعتذاري على ما بدر مني ليلة البارحة، وأخبرتها بأنني أمضيتُ برفقتها ليلة ممتعة لن أنساها، سواء الوقت الذي أمضيناه في الملهى، أو في البيت.

عندما ودَّعتها، طلبتْ مني رقم هاتف بيتي، فكتبته لها على ورقة، وعند العتبة توقَّفتْ بي قدماي وقلت: هل أخذتي حاجتكِ من النقود؟
قالت: لا أريد شيئاً، لقد علَّمتني ما هو أهم في هذه الليلة.
سحبتُ المحفظة من جيبي، وناولتها إياها قائلاً: لن أتحرَّك من هنا قبل أن تأخذي حاجتكِ. ثم وضعتُ كفَي على عينَي وقلت: سوف أبقى هكذا حتى تأخذي.
بعد قليل، قالت: افتح عينَيك، لقد أخذتُ حاجتي منها، ثم ناولتني المحفظة.

بخروجي، ظننتُ أن كل شيء قد انتهى، ولم يكن يخطر لي ببال أنها بعد ثلاثة شهور ستأتي إلى مدينتي وتجري معي اتصالاً وهي تقول: صدّقني لو كان الأمر بيدي، لما زرتك، لكنني اندفعتُ إليك، إن لم يكن لديك مانع، أرجو أن تسمح لي أن أراك ولو نصف ساعة، ثم سأعود إلى مدينتي.
عندئذ طلبتُ منها أن تخبرني عن المكان الذي تتحدَّث فيه بالهاتف، وخرجتُ صوب المكان، فرأيتها واقفة على الرصيف. عندما التقت نظراتها بنظراتي، رأيتُ الدموع تنفجر من عينيها بغزارة.
قالت: اشتقتُ إليك بقوة، إنني بحاجة إلى أي نظرة أنظرها إليك، إلى أي كلمة أسمعها منك.
قلتُ: لكنها مسافة طويلة، وشاقّة، وكان يمكن لكِ أن تتحدَّثي في الهاتف.
قالت: لو كان الهاتف وحده يكفي، لفعلتُ ذلك، لكنني أحسستُ بقوة الحاجة إلى رؤيتك، والتحدّث معك وجهاً لوجه.

عند ذاك، أشرتُ لسيارة أن تأخذنا إلى البيت، وعندما توقفت السيارة، رأيتها تسارع إلى المحل، وهي تحمل أكياساً، وتضعها في السيارة، ثم عادت إلى ذات المحل، فلحقتها، وإذ بأكياس متراكمة إلى جانب حقيبتين، قالت: هذه بعض الهدايا جلبتها لك من دمشق.

صرتُ أحمل معها، وأضع في السيارة، حتى انتهينا، فانطلقت بنا السيارة نحو البيت.
قالت وهي تنظر من خلف زجاج السيارة: مدينة جميلة، وهادئة، دمشق محمَّلة بالصخب والضجيج، لذلك يهرب سكانها في الصيف إلى الطبيعة لقضاء أيام الأعطال، بحثاً عن الهدوء.
عندما مدَّت خطواتها الأولى إلى البيت، لا أدري لماذا راودني إحساس أن دمشق كلها جاءت لزيارتي، كانت رائحة دمشق تفوح منها بقوة.

بعد نحو ساعة من جلوسها قالت وهي تنظر إلى مساحات الغرفة: ألا أحد في البيت غيرك؟
قلت: أقيم هنا بمفردي حتى أستطيع أن أعيش وفق الطريقة التي أريدها.
بعد قليل سألتني عن الحمّام، وعن المطبخ وهي تقول: ياه.. كم هي مسافة طويلة، لكنني كنتُ سعيدة وأنا أتخيَّل أن كل ساعة كانت تجعلني أكثر قرباً منك.. كم أحتاج إلى الحمّام، وكم أنا جائعة، وبعد ذلك كم أحتاج إلى الاستغراق في نوم عميق.

بعد أن أشرتُ لها إلى الحمّام، فتحتْ حقيبة ثيابها، وأخرجت ثياباً داخلية وخارجية، ثم راحت تدخل الحمّام، في تلك اللحظات، خرجتُ من البيت واتجهتُ إلى مطعم، جلبتُ دجاجة مشوية، وعدت.
وضعتُ الدجاجة في المطبخ، فرأيتها تخرج وهي تقول: الحمّام أراحني من بعض الإرهاق الذي كان مستبدّاً بجسدي.
ثم دخلت المطبخ، فتبعتها، وصرنا نعدّ الطعام، بعد ذلك استأذنتني كي تنام، فتركتُ لها الغرفة، وخرجتُ إلى غرفة أخرى.

عندما بلغت الساعة السادسة مساءً رأيتها تنهض من نومها، وتطرق علي الباب، رأيتها على خلاف ما كانت عليه، فقد عاد الهدوء إليها.

بعد ذلك جلست وراحت تفتح الأكياس والحقيبتين، وهي تُخرج منها الهدايا قائلة: أريد أن تنسى كل ما حصل في دمشق، كنتُ بحاجة إلى المال، ولذلك طلبته منك، أرجو أن تقبل مني هذه الهدايا، وتقبل أن اكون صديقة لك، فأنا بحاجة ماسة إليك، ولذلك قطعتُ كل هذه المسافة.
لا أريد أن أكذب عليك، وأقول بأنني عفيفة، بل أصارحك بأنني أمتهن تلك المهنة المقرفة إلى نفسي.
هززتُ رأسي وأنا أنظر إليها، فقالت: رغم كثرة الأموال التي أحصل عليها نظير هذه المهنة، فإن هذه الأموال منزوعة البركة، يبدو لي أحياناً كما لو أنها تتبخَّر، لأنني دوماً أكون بحاجة إلى المال، ولا أجد ما أسدّد به حاجاتي.
صمتت قليلاً، ثم أردفت تقول: مضت علي ثلاث سنوات وأنا أعمل في هذه المهنة، وأتردد إلى تلك الأماكن التي يتردد إليها الذين يريدون أن ينفقوا ما لديهم، ويستمتعوا بأوقاتهم، تعرَّفتُ إلى أشكال مختلفة من الناس، إلى تركيبات متناقضة،
قلتُ لها: وهل تجدين متعة في هذه المهنة؟
قالت: المتعة بالنسبة للمرأة لا تكون إلاّ مع زوجها، وما دون ذلك فهي متعة مصطنعة، أنا مررتُ بتجربة زواج، لكنها فشلت، وأستطيع أن أكتشف بأن أي متعة ما دون الزواج، هي متعة مزيَّفة، وليس هذا فحسب، بل لدي شعور بأنني لم أحقق خلال هذه السنوات متعة حقيقية لرجل واحد، لأنه وهو معي، كنتُ أرغب في أن ينتهي بسرعة، حتى يأتي غيره بما يمكنني أن آخذ منه من أجر، فما يهمني هو ما أحصل منه من مال، وليس ما أقدّمه له من متعة.

ثم أخذت تعبّ نفساً عميقاً من النرجيلة، وأضافت تقول وقد ارتسمت بسمة باهتة على ثغرها: ثلاث سنوات متواصلة من هذه المهنة مَضَت عليّ، أظنني نمتُ مع ما يزيد عن ألفَي رجل, لأنني أحياناً أنام مع ثلاثة أو أربعة رجال في اليوم الواحد في فترات متقطّعة, تَصَوَّر كل هذا الكم الهائل من الرجال, كنت أرغم نفسي على الارتماء في أحضانهم من أجل جيوبهم، وأنا

مُدركة بأن تلك العلاقة الجَسَدية هي أنبل من ذلك.. كنتُ أمتلئ بالقَرَف والاشمئزاز حتى من روائحهم الكريهة، ومن نبرات أصواتهم وهي تخترق سَمَعي.

أحياناً كان يراودني شعور بأن الذي معي هو حيوان، فكنتُ أنظر إليه بِفَزَع، وأتخيَّل أي نوع من الحيوان هو، ثم في لحظات أخرى أتخيَّلني حيواناً، ولكن بهيئة إنسان.

ذات مرة لبث هذا الشعور مُسَيطراً على مُخيّلَتي، وفجأة صرختُ بأعلى صوتي، وهربتُ من حضن رجل، وكان الوقتُ نحو منتصف الليل، خرجتُ إلى الشارع بفستان النوم، وصرتُ أركض في الطرقات، أحاول أن أشغل نفسي بأي شيء حتى أخفّف من وطأة ذاك الشعور الذي استبدّ بي.

مضى الوقتُ دون أن يتركني ذاك الشعور، وأنا أنظر إلى نفسي، أصعد سيارة، وبعد قليل أنزل، لأصعد أخرى، لكن دون جدوى، بَدَت أنفاسي تتقطَّع، وانتابني إحساس مفزع بأنها اللحظات الأخيرة لي في الحياة، عند ذاك تسرَّب إلى سمعي أذان الفجر، تَسَمَّرتْ بي قدماي، وسَرَت قشعريرة في عروقي، بدأتُ أنظر حولي، وأصوات المؤذّنين تتَّحد في الأذان.

تنفستُ الصعداء في تلك اللحظات، وبَدَأتْ الدموع تنهمر من عينَي بغزارة، جلستُ على ركبتَي في ركنٍ مظلمٍ، وأنا أحدّق في قاماتٍ تتسرّب إلى المسجد.

عندما رأيتُ بعض النسوة يدخلن المسجد وهنَّ يرتدين عباءات سوداء، كم راودني إحساس فيما لوكنتُ إحداهن، كم تمنيتُ فيما لو نهضتُ من موضعي، ودخلتُ معهن باب المسجد، لكن لا ثيابي، ولا ما أنا به من عدم اغتسال كانا يسمحان بذلك.

بدأتُ أستمع لصوت الإمام، ثم لنبرات أصوات المُصَلِّين والمُصَلِّيات، وهم يُرَدّدون : آ..م..يـ.. يـ..يـ..ن.

عندما خرج الناس من المسجد، أحسستُ بأن ذاك الشعور الذي كان جاثماً بكل قوته على صدري قد تركني.

خَيَّمَ صَمتٌ عليها ثم شَرَعَت تقول: أجل لم يسبق لي أن قَبّلتُ واحداً منهم قُبلةً حقيقية بنشوةٍ من الأعماق, ولم يُقبّلني رجلٌ واحدٌ قُبلةً حقيقيةً تُذرف لها الدموع, لذلك هربتُ إليك, لأنك يمكن أن تهديني تلك القبلة التي بحثتُ عنها طويلاً.

ذات مرة قلتُ لنفسي: لو بعتُ لألفَي رجل ألفَي بدلة، لكنتُ الآن من الثَريّات, ولكنني أخذتُ منهم أضعاف ما كان سأربحه من البدلات، ورغم ذلك أحياناً أمدُّ يدي لقيمة علبة تبغ, كل هؤلاء الناس الذين عرفتهم لم يكونوا بالنسبة لي غير جرابيع كبيرة.

أحسستُ بأنني أدخل عالمها الغامض أكثر عندما صارحَتني باسمها الحقيقي وهي تمدّ إلي بطاقتها الشخصية، فعرفتُ بأن اسمها الحقيقي هو (شيراز) وليس (ديمة) كما قالت لي في دمشق
بعد أن نظرتُ في البطاقة وأعدتها إليها، قالت: لا أريد لأحدٍ أن يناديني باسمي الحقيقي، لأنني أشعر بأنه لا يستحق أن أقدّم له حقيقة اسمي، فهو قد جاء لغايةٍ، عليه أن يأخذها وينصرف، وأنا مغمضة العينين والقلب.
إنني أتحاشى أن ألوّث هذا الاسم عندما يلفظه شخص ملوَّث جاء لتلويثي، فهو يعني لي نصوع براءة الطفولة التي تأبى التلوّث، يعني لي سنوات الطُهر والنقاء التي عشتها، هذا الاسم الذي تركته جانباً لأنني أريد أن أعود إليه كما لو أنني مُمَثّلة، بعد أن ينتهي دوري، سوف أعود إلى حقيقتي.

هذا ما أقنع نفسي به حتى لوكنتُ واهمة، لكن من خلال هذا الوهم أبقى مُتمَسّكة بحبل الأمل، فأنا الآن ألوّث الاسم المستعار لي، وكذلك ألوّث الشخصية المستعارة التي أقوم بتمثيلها، ولذلك لن يحتمل سَمَعي أن يناديني أحد هؤلاء باسمٍ غيره، أمّا هنا جعلتني أشعر بضرورة أن أفصح لك عن

حقيقة اسمي حتى تناديني به، لأنني لن أحتمل أن تناديني بغيره حتى لا تكون كأولئك بالنسبة لي.
عندما تناديني (شيراز) تتجرّد تلك المُمَثِّلة مني، وأشعر بأنني مُمتَلِئة بكنز الطفولة الذي خَبّأته، عندما تناديني (شيراز) أعيش مع كل حرفٍ من حروف هذا الاسم عذوبة البراءة، وأشعر بأنني مع نبرات صوتك أكون تحت شمس الحقيقة.

كنتُ أقول لها: شيراز
فتقول: أرجوك اعد
أقول: شيراز..
تقول: أرجوك اعد
أقول: شيراز.. شيراز.. شيراز
تقول: أرجوك: المزيد
أقول: شيراز.. شيراز.. شيراز.. شيراز.. شـ شـــ..يـ يـ.. رر..اا.. زز..

كانت تلح عليّ كي أناديها بهذا الاسم، وهي تتباطأ عن الرد، كي أكرره على سمعها، فأرى النشوة بادية عليها وهي تستمتع بتلقّي حروف الاسم، لكن أحياناً كان يلتبس عليّ الأمر، وأناديها: (ديمة)، فأراها تحتقن وتثور، وكأنها تلقَّت مني شتيمة، كانت تُنكّس رأسها، وهي تشعر بخجلٍ شديد، وتذرف الدموع حتى أبدأ في مسح دموعها، وأعتذر عَمّا بَدَرَ مني تجاهها خطأً، ثم أبقى أكرر (شيراز) على سمعها حتى ترفع رأسها.

كانت تمتلك مقدرة هائلة للخروج من كل حيثيات ذاك العالم الذي كانت غائصة في براثينه، وهَرَبَت منه، والانسجام مع تفاصيل عالمٍ جديدٍ أتت إليه، واستكانت في حَناياه، وهي تمضي ساعات الليل وتبوح لي بأن ذروة

معاناتها تكمن في هذه الازدواجية التي تكتوي بنارها لحظة بلحظة، فلا هي قادرة على الانسجام مع ذاك الواقع، ولا هي قادرة على الخروج منه.
كما الأمر عندما ترى نفسها مضطرة لتضع قبلة على وجه شخصٍ مقيت لا يستحق منها سوى البصاق، ثم تقول: كم هو مؤلمٌ عندما يكون الإنسان مُزدَوَجاً، كم هم مؤلمٌ عندما يكون على غير حقيقته، في الدرك الأسف من هوّةٍ مُجَرَّدةٍ من الأخلاق، كل مَن فيها، لصوص، وعاهرات، وخَوَنة، يمارسون أقصى درجات الانحطاط الانساني، وكل واحدٍ لا يملك سوى أن يُلوّث الآخر، ويُجرّده مما بقي لديه من قِيَمٍ إنسانيةٍ.
تعلّمتُ أن الإنسان لا يمكن له أن يتذوّق لحظة سعادة حقيقية واحدة في تلك الهوة السحيقة، وأنا أرى كيف أن الفضيلة تقدّم لذة عسلها للفاضلين والفاضلات، كان منظر امرأة فاضلة وأنا أراها في الطريق، يجعلني أهرع إلى البيت، أخبّط رأسي في الجدران حتى يُغمى علي، وعندما أصحو، أراني بين خيوطٍ من دماء.

أمضَتْ شيراز ستة أيام في بيتي، كنا نخرج ونعود فيها معاً، رغم أنها كانت ترتدي ثياباً ملفتة للنظر، أو لأقل لكِ: كل ما فيها كان ملفتاً للنظر، وكان بائناً للعيان أنني أمشي مع عاهرة، وأستمتع بالمشي معها وسط المدينة.
كانت تريد أن تعيش ذاك العالم الخاص بها، وتُعبّر عن مفهومها الخاص تجاهه، أحياناً كان يلاحقنا البعض، وهي تلتفت يميناً وشمالاً، وكانت ثمة نشوى تتسرّب إلي وهي تلتفت إلى شخص وتقول: ذاك يلحقنا.

كنا نجوب شوارع المدينة، وهي تشتري كل ما يلفت نظرها بسخاء، وتصرّ أن نسهر كل يوم في البيت حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وهي تملأ المائدة بأصنافٍ وألوانٍ من الطعام والشراب، ومع انتهاء الأيام الستة، ودّعتني بالقبلات والدموع وهي تقول بأنها أمضت أمتع ستة أيام من الحقيقة، وأنها لولا الحاجة، لَما عادت إلى ذاك العالم.

لكنها تحب الحياة وتريد أن تنفق كما تريد وتعيش كما تريد وتجرب كل أوجه الحياة.
بعد غيابها بستة شهور، تفاجأتُ بها ذات صبيحة عند الساعة الخامسة صباحاً تطرق الباب، فتحتُ لها، فألقت نفسها في حضني وهي تقول: المعذرة، الآن وصل الباص.. قطعتُ كل تلك المسافة بسرور وأنا ممتلئة بشعور أنني قادمة إلى نفسي، لا تتخيّل كم اشتقتُ إليها وهي في هذا المكان.

الآن مضى شهر على ذهابها ولا أعرف إن كانت ستعود للمرة الثالثة أم لا, ولكن أرغب في ألا تغيب عني تلك المرأة, أرغب أن تزورني ولو في السنة مرة واحدة, حتى وإن تزوجنا ستحمل في زياراتها إلينا خصوصية, وتحمل لنا شيئاً جديداً.

لم أنس، سأحدّثك عن نرمين التي كانت تسعى بقوةٍ في بعض مراحلها إلى اقتلاع هذه الأشواك ولعلّي تعمدتُ أن أؤجّل هذا رغم كل حديثي عنها, أجل ففي آخر مرة وقبل اختفائها بأيامٍ جاءتني منهارة بعد غياب أسبوع أمضَته على البحر, وكان الرجل قد سمح لها للذهاب مع أحد الضحايا لقضاء عشرة أيام على البحر لتمتين العلاقة بينهما.

كان يسمح بمثل هذه الأسفار ويعدها بمثابة المكافأة والاستراحة, فكانت تقضي أياماً ثرية في أرقى شاليهات البحر مع الأثرياء الذين يأخذونها ويعيدونها بسياراتهم, وبعد ذلك يمنحونها مبلغاً جيداً من المال تعطيه لأبوَيها مع الهدايا الثمينة.
طَرَقَت بابي عند الغروب وكانت في وضعٍ نفسيٍ سيءٍ للغاية, وهي تقول: أرجوك أن تستقبلني, أنا بحاجةٍ إليك.
عندئذ أدخلتها إلى البيت، وهنا لابدّ أن أقول لك أنها وبرغم كل شيء كانت تحتقر معاشرة الرجال كما لا تحتقر شيئاً, وكانت تمتلك برودا أنثوياً غاية

في الغرابة, فلم تجعلني أشعر للحظة واحدة رغم الحالات المختلفة التي كنت أستقبلها فيها بأن أنوثتها تَحَرَّكَت لهنيهةٍ, وأحيانا تقول بأن أكثر الرجال الذين تكنّ لهم احتراماً، هم أولئك الذين لا يكونون على علاقة جنسية معها, ولا ينظرون إليها نظرات شَبَقية, ذاك الرجل هو المثال لديها, علاقات التعارف العفيفة, علاقات المحبة النقية, حتى لو استاءت منها المرأة فإنها ستبقى الأثيرة في حياتها ويبقى ذاك الرجل لوحده يحمل ذكرى طيبة لديها: كل هؤلاء الذين أتعامل معهم أوغاد, ولكن لا أستطيع أن أقول ذلك عن أولئك الذين نظروا إلي ونظرت إليهم بعفة.. ولكنهم يكادون يُعدّون على أصابع اليد.
رمت بجسدها على الكنبة وكأن إرهاق العالم لبسها, أغمضت عينيها وغفت نحو ساعة ونصف, ثم استيقظت وتمتمت كمريضة بشفتين مرتعشتَين: كم أنا مشتاقة لكأس من الشاي, أرجوك .. والله أنا منهكة.

لاعليكِ.. قلتها واتجهتُ إلى المطبخ، أعددتُ إبريقاً من الشاي بالقرفة، وعدتُ إليها، سحبتُ كرسياً صغيراً إلى جوار رأسها وقعدتُ أصبّ الشاي.
عندئذ مَدَّت كفها إلى كأس، رشفت رشفة من الشاي الساخن، ثم أخرجت علبة دخان من حقيبتها، ألقتْ إليها نظرات، وقذفتها قائلة: أريد أن أتخلَّص من كل شيء.. يا رب ساعدني. وأجهشت بكاء وهي تتمتم: كنت على البحر, ظننت بأنني سأمضي أياماً جميلة مع أحد الأثرياء الذين دعوني, مكثتُ يومين, ولكن لم أستطع الانسجام ككل مرة.

عاد ذاك الشعور القاتل يعكّر مزاجي في أكثر الأماكن هدوءاً وسكينة.
هذه هي مشكلتي الأكثر دماراً لأعصابي التي أعانيها, كلما أقول بأنني سأبحث عن المتعة كي أنسى, يركبني هذا الشعور ويصرخ في حواسي: أنت آثمة.

فلا أستقر على حال, وأبدو ملغومة في داخلي، مشكلتي أنني لا أستطيع أن أخرج من تحت ثقل الإثم الذي يجهدني, وعند لحظات الاستمتاع يأتي هذا الشعور ليفسد علي كل شيء, أولأصارحك, كي يُنبّهني بأن علي عدم الاستمرار في هذا المسلك.

بعد ثلاثة أيامٍ هربتُ دون أن أعلمه بذلك, لم أعد قادرة على التحمّل, حتى الدخان سأقلع عنه, أرجو أن تبقيني عندك ولن أخرج من هنا حتى اليوم الأخير من عمري, الشعور بالإثم يشل كل حركة في جسدي, يبدو أنه كان عليّ أن أمر بكل تناقضات الحياة حتى أبلغ مرحلة الهدوء النفسي.
صَوّبَت إليّ نظرةً ذات معنى مردفةً: هل تظن أنه سيأتي اليوم الذي أبلغ فيه مرحلة الهدوء النفسي؟ لاأزال أذكر أنني قلت لها: كثيرون يعيشون هذا الهدوء الذي تنشدينه بمستوى الغباء الذي لديهم, وكثيرون يعيشونه بمستوى الذكاء الذي يتمتعون به, لكن الفرق أن الأذكياء يستمتعون بهذه السكينة ويتذوقون هدوء روحها لحظة بلحظة حتى يخالون أنفسهم في جنة, بينما الأغبياء يفوتهم أن يستنشقوا أنساماً كهذه.

بعد قليل رأيتها تنهض وقد دبّ شيء من النشاط إليها، توضأت وعادت تُصلّي ثلاث ساعات متواصلة, وهي المرة الأولى التي رأيتها تُصلّي, ولكنها كانت صلاة عميقة, لم أر إنساناً صلّى بذاك العمق مثلها.
كانت عباراتها التوسلية الخافتة تنتشر في الغرفة المغلقة وقد تجاوز الليل منتصفه، بدا أن الهدوء أخذ ينتشر قليلا في أوصالها، وغدت نبرات خافتة تخرج منها وهي مسبلة العينين: تعلمتُ من كل هذه التجارب أشياء لن أنساها, تعلمتُ أن المرأة كائنٌ مباركٌ وهي أسمى من أن تعرض مفاتن جسدها لتكون أثيرة عند الرجل, ولن تكون أثيرة عنده إلا بقوة عفافها, وقوة استقامتها, يمكن لها أن تلفت نظره بمفاتنها لنظرات أو للحظات, لكنها تلفت

انتباهه إلى الأبد بقوة شخصيتها وفضيلتها وما تمتلك من ميزات حتى لو اختصرت في صناعة طعام طيب, أو في الإبداع بترتيب البيت.
ينظر الرجل إلى المرأة بعينيه, ولكنه ينتبه إليها بعقله، تلك المرأة الخالدة لدى الرجل هي التي لفتت انتباهه ولو مرة واحدة وغابت إلى الأبد, لكن العشرات يلفتن نظره ويختفين دون ترك أي أثر سوى أثر اللحظة.
علّمتني نكساتي واخفاقاتي بأن المرأة التي تثير غريزة الرجل، هي امرأة آنية، وأن الرجل الذي ينظر إلى جسدي لا يلزمني, يلزمني الرجل الذي ينظر إلى ما أملك من مزايا.

عندما رأيتها تركن إلى الصمت، نهضتُ تاركاً الغرفة، وبعد نحو ساعة عدتُ، فرأيتها جالسة على سجادة الصلاة، مستغرقة في قراءة القرآن الذي يبدو أنه كان في حقيبتها.
جلستُ على الكنبة، وهي ماتزال تقرأ، والدموع تنهمر من عينيها حتى غلبني النُعاس، فتركتها واتجهتُ إلى الغرفة الأخرى للنوم، لبثتُ حتى أفاقتني في التاسعة صباحاً، وكانت قد أحضرت الفطار دون أن تشاركني لأنها كانت صائمة، وهو اليوم الأول الذي أراها فيه تصوم.
عندها علمتُ بأن موقف صدقٍ يمكن له أن يغسل الروح من آثام عمر بأكمله، الصدق يا رضوى، إنه الدواء الأكثر فاعلية لأمراض الروح, حتى المتسوّل لا يمكن أن نحترمه عندما لا نلمس الصدق في تسوّله.
أردتُ أن أتركها كما شاءت أن تكون ولم أتدخل في هذا التغيير الطارئ الذي حدث معها خوفاً من أن أفسد عليها حالة الصفاء التي بدت واضحة في ملامحها, فغدت تذرف الدموع وتتمتم بحزن عميق: دوماً تأتي العفة لتطهر الروح والجسد من آثام العالم, وأنت تشعر بأن عفتك ترفعك بكامل نقائك إلى ملكوت الرب على جناحَين من طهر.
ثلاثة أيام مرّت على بقائها في بيتي وهي محجّبة تُصلّي وتقرأ القرآن وتصوم, وتقول بأنها أهدأ أيام عمرها على الإطلاق، وذات يوم رأيتها

ترشدني كي أصلّي وهي تقول بأن الله فرض الصلاة علينا ليس لنصلّي فقط، بل لنصل من خلال الصلاة إلـى طمأنينة الروح, وعند ذاك نكون قد قدّمنا عبادة لله, لأننا حقّقنا الهدوء لأنفسنا وأنقذناها من اضطرابات الآثام. وتقول: كم أنا سعيدة وكم أنا سيدة الآن, شيء رائع أن تشعر بأنك سعيد وأنك سيّد، ولا تصدق بأن أي خطيئة في العالم تحقق لي هذا الشعور بقوة الأمن، ربما ما أقول عبارة عن هلوسات امرأة طائشة, وأنا أدرك بأنك فقدت احترامك لي, ولكن هذا ما تعلّمته خلال هذه التجربة القصيرة من رحلة التوبة, أنا سعيدة بهذه الهلوسات.

في اليوم الرابع وعند عودتي من العمل لم أجدها في البيت، وبعد يومين وجدها أحد الرعاة مقتولة بالقرب من النهر.

كان الخبر الذي هزّني أكثر مما هزّ أي كائنٍ آخر, وما تزال ذاكرتي الضعيفة تذكر كلماتها الأخيرة التي تَرَكَتها في سمعي: علينا أن نكون أكثر تحملاً, وكلّما وقَعت علينا الضربات الكبرى الموجعة، نزداد قوة وصلابة في احتمال مرارتها.

ما يهم أن نمتلك كل تلك الطاقة التي تمكّننا من الوقوف بشموخ أمام مختلف ظروف الحياة القاسية وألا نستسلم للوساوس الخبيثة, ليس بالضرورة أن نكون سعداء في الحياة حتى نستطيع أن نعيشها, ولكن بالضرورة ألاّ نقبل السقوط ونرفضه بكل إمكاناتنا, يمكن أن نعيش بدون سعادة في آخر درجة من درجات الألم ونحن نحمل كبرياء الإنسان في أعماقنا وننجح في أن نحب الحياة ونعتبرها كنزاً نتمسك به رغم أوجاعنا, ولكن لن ننجح في أن نحب الحياة بأي شكلٍ ولا أن نتذوق لذة المواجهة ونحن نحمل في أعماقنا رايات إنسانية مُنَكّسة.

الفصل السابع

هي ساعات وساعات حتى أكون بجانبكَ هناك, كل مَنْ هنا رفض عودتي بقوة, راضي, فرجينا, الصديقات, ولكن هذا الرفض كان يزيدني إصراراً على العودة وأنا أشرح لهم بأنك مريض وأنا أقف خلف مرضك هذا.
في السابق كنت أحضر كل أسبوع لأمضي يوماً كاملاً في تنظيف البيت, ولكن فاتني هذا الأمر, فاتني أنك مهمل بالنسبة لتنظيف البيت وهذا سيسبّب لك مشكلة مع الوقت.

سأل راضي طبيب العائلة وشرح له أعراضك التنفّسية الصعبة التي تمر بها خاصة في الليل، فقال إنها بداياتٌ لالتهابٍ في القصبات، وسوف تتطوَّر الحالة بدون حماية.
وقال بأن ذلك يسبّبه على الأغلب البقاء في أماكن تفتقد للنظافة, وحتى الثياب التي ترتديها تعزّز هذه الحالة إذا لم تكن نظيفة بشكل جيد وخاصة الثياب الداخلية، فعليها أن تكون مغلية بالمسحوق, ثم عليك ألا تعرض نفسك للبرد، ولا تنم اعتباراً من الآن في الخارج ولا تدع النافذة مفتوحة ليلاً, ولا تستخدم الحامض والحاد.

وعندما أخبره راضي بأسماء الأدوية التي تستخدمها، قال بأنها جيدة وستخفّف عنك الحالة، ولكن هذا لا يعني بأنها لن تعود عندما تنتهي الأدوية وتعود إلى ماكنت عليه من إهمال.
في هذه الحال ستبقى تستخدم الأدوية طوال الشتاء، لذلك لم أجد بُدّاً من أن أكون بجانبك, وعند حضوري نبدأ في الترتيب للزواج.
أجل سأقطع كل هذه المسافة وأقطع رحلة التعليم والانفتاح لأعود من أجل أن أمسك بيدك وأغسل لك رأسك وأكوي ثيابك وأطبع قبلات فائضة على وجهك وأنت تخرج من البيت, وعندما تعود سأكون أمام الباب بانتظارك

لأهرع إلى منتصف الشارع كي أحمل ما بيدك من حاجات, وسأنظر حولي في الشارع حتى أتمكَّن من اختلاس ولو قبلة صغيرة كبسمة مولود على خدك إلى أن ندخل وأنهال عليك بالقبلات وأضمك في حضني لأنك غبت عني ألف عام.

وعندما أصبح حاملاً، ستمسك بيدي ونمشي ساعة المساء مسافات خارج الحي كما كانت أمي تمشي بي وهي تمسك بيد أبي عندما كانت تحملني, هكذا سنمشي معاً من أجل صحة طفلنا ومن أجل أن يتنسم هواءً نقياً.
دع كل شيء كما هو عليه، أنا سعيدة بأنك كخطوة أولى وضعت كل ما تستخدمه جانباً, اشتريتَ فراشاً جديداً, وثياباً جديدة, وبذلتَ بعض الجهد مع قريباتك لحملة في تنظيف البيت, وسعيدة لشراء طاولة الكمبيوتر لأنها صحية ومصنوعة وفق دراسة هندسية صحية موثوق بها عالمياً وراضي هنا يستخدمها.
ما يهم أن تستمر بالدواء وخاصة: أقراص الأمبيلوكس, والكيبريل, وشراب موكولار, والبخاخ, والحقن, بالنسبة للحقن لا تستخدمها إلا عند الضرورة القصوى, وهذا هو الكلام الذي أكده الطبيب لراضي وقد أكده لي كذلك وطمأنني بأن الحالة مهما بلغت من شدة، فإنها ستخف بمجرد استخدام هذه الأدوية السريعة الفاعلية، ولكنني أقول بأننا لن نكون بحاجة لاستخدامها أصلاً عندما نتجنَّب دوافعها.
سنتان ونصف مضت على وجودي هنا وأعترف بأنها حياة ثرية عشتها ولن أنساها ما حييت, ولكنني كما جئتُ إلى هنا من أجلك فها أنا أعود إليك من أجلك.
إنها المكالمة الأخيرة، سأترك كل شيء هنا, وسأجيء إليك كحمامة لأحط على حائطك مع خيوط الفجر الأولى, ياه كم بي شوق لرؤية ذاك الحائط ولنشر ثياب طفلنا وملاءات سريره عليه ككل نساء العالم, وتعود وتقول لي أن نصفكِ رجل ونصفكِ امرأة, وعندما تريدين أن تكوني رجلاً تكونين

برجولة أقسى رجل, وعندما تريدين أن تكوني امرأة تكونين بنعومة أنعم امرأة في العالم, وليس هناك امرأة تضاهيك عندما تقفين في المنطقة الوسطى ما بين الرجل والمرأة, ولا أظن أن ثمة امرأة تتمتع بهذه الخصوصية غيرك.
كنت دوماً أردّد، ياه بدأتُ أحيل هذا الواقع إلى فعل مضى منذ الآن لكنه فعل رائع وأكرّره ملايين المرات, وأشعر بأنه نسمة ربيع.
كنتُ دوماً أكرر حديثك هذا عني لفرجينا وكانت تغرق بالضحك وتقول بأنه رغم ولع الرجال في الشرق بتعدد الزوجات، فإنني أراهن بأنه لن يستطيع أن يفكر ولو للحظة بالعيش مع امرأة أخرى غيرك لأنه لن يرى من تملأ له كل تفاصيل حياته وتملك أن تمنحه كل شيء, النساء اللواتي يمنحن كل شيء للرجل نادرات سواء في الشرق أو في الغرب, أنت بالنسبة إليه المرأة الاستثنائية على حالة عامة, المرأة الأسطورة التي لا تومض إلا في خيال الرجال في أحسن الأحوال, المرأة التي خصَّتها الطبيعة بميزات دون غيرها.

إنها وقائع الاستعدادات الأخيرة للعودة النهائية من مكان يبدو لي أن الظروف لن تمكّنني من رؤيته مرة أخرى, ولذلك فإنني أشعر بغصّة عميقة لترك كل هذه اللمسات هنا كما أنني أشعر بحالة نشوة أحلّق بها على جناحَي حمامة بيضاء وأنا أحلّق في فضاءات العودة إلى أقرب منزل إلي لأعيش مع أقرب كائن إلى قلبي وروحي.
كل حديثي مع فرجينا هنا ينصب في الأوضاع المأساوية التي تمر فيها بقاعنا, وأستطيع أن أنقل لك وجهة نظر الذين ألتقيهم هنا وأتحادث معهم.
إنهم يرون أن تلك الأحداث المأساوية التي وقعت، قد جعلت الناس هنا يفتقدون حالة الأمن, ويوحون لقادتهم بأنهم فشلوا في أن يقدموا لهم الحماية, ولم يبق أمام القادة إلا أن يُغيّروا هذه المشاعر لدى الناس بإظهار القوة التي تُعيد ثقتهم بقوة قادتهم وقوة بلدهم, فقاموا في البدء باكتساح بلد كامل وتفتيت

جيش كان يقود ذاك البلد, ومن ثم قاموا باكتساح بلد آخر وتفتيت نظام كامل كان من أقوى وأرعب أنظمة المنطقة.
وهنا كان أمام القادة أن يقولوا لشعوبهم بأنهم ليس فقط يستطيعون أن يحققوا الأمن لشعوبهم داخل البلاد, بل يحققونه لجيوشهم أيضاً وهم يستولون في بلاد أخرى طردوا جيوشها وفتَّتوا أنظمتها, لذلك لم تكن ثمة قوة في العالم بوسعها أن تقف في وجه استمرار القادة لتحقيق هذه الغاية, ولذلك تمرَّدوا على أي قرار من شأنه أن يمنعهم حتى لوكان صادراً من أي جهة أمنية أو إنسانية.
بالنسبة لهم لم يكن يعني امتلاك أي بلد لأي أسلحة شيئاً, أو أن أي بلد كان يمارس الديمقراطية أو الاضطهاد على قدر ما كان يعنيهم إظهار بأنهم الأقوياء الأوائل والأسياد بقوتهم في العالم وأنهم يستطيعون أن يتصدّوا لأي محاولة تسعى لزعزعة الأمن في ديارهم, لم يكن ليحدث ما حدث لو أن الأحداث وقعت في فرنسا مثلاً أو في السويد أو حتى في مكة.
إن حالة تفجير غير كافية ولا مبررة بأي حال لاكتساح دولتين وتغيير نظامين إذا كانت واقعة في أي بلد آخر.
والدليل أن اكتساح دولة كاملة من قِبَل دولة جارة لها لم ينتج عنه ما نتج, ولم تكن أكثر من محاولة لإبعادها عن الموقع لتبقى هي فيه, وأن سبع سنوات متواصلة من الحرب بين بلدَين لم يحرّك ساكناً هنا لأنهم كانوا خارج الموضوع وكانت تُستخدم في تلك الحرب أفتك الأسلحة, كانت بعض البلدان تقتل شعوبها بالجملة ولم يتدخَّل أحد لحماية الإنسان وانتزاع حقوقه من الإنسان وكان بإمكانهم التدخّل كما بإمكانهم التدخّل الآن.

كان السكوت هنا يعني بالنسبة لهم الرضوخ لمشاعر الهزيمة مثل الذئب الجريح الذي لا يهمه إلاّ أن ينتقم من الذي طعنه من الخلف في عقر داره وفرّ يختبئ في ديارٍ أخرى, وإذا ثبت عجزه فإنه لا يتوانى من أن ينتحر, أجل كان السكوت يعني انتحار العديد من الناس هنا وأولهم الرئيس الذي

كان دائم الاحتقان ولم يغب الاحتقان عن وجهه إلاّ مع اليوم الأول لدخوله أراضي الرجل الذي كان يتباهى بفتوحاته على مرآة من العالم، لأن هذا الانتحار كان سيخلّصهم من مشاعر الذل والإهانة التي تحتل صدورهم وتجعلهم يخجلون حتى من الظهور على شاشات التلفاز بوجوه مشرقة وبمشاعر الاعتزاز بالنفس كما يفعلون الآن وهم يطئون بأقدامهم الأراضي والقصور التي احتلّوها بالقوة وطردوا ولاة أمورها إلى العراء, إن مجرد هذه المَناظر تعزّز حالة الأمن في الناس هنا وتجعلهم يثقون بأنهم الدولة الأقوى في العالم ولم يكن ما حدث إلاّ حالة استثنائية لا تتكرَّر.

وكان ذلك الصمت يفتح أبواباً أخرى عليهم لأن الجَمَل عندما يقع تكثر عليه السكاكين كما يقول المثل.

هذه الأحاديث تدور بيننا نحن الصديقات في بيوتنا المغلقة عندما نسهر وكل واحدة تقول وجهة نظرها في الأحداث التي تجري في العالم. ولكن دوما أقول: ما الذي جناه عالمنا من تلك الأحداث, هل كنا بخير قبلها أو بعدها.

لقد أدَّت هذه الأحداث إلى حياة بضعة آلاف من المدنيين من مختلف الأديان والقوميات, كما أنها لم تقع بطائرات عسكرية على مواقع عسكرية, وهؤلاء لم يقتحموا البلاد بالقوة, بل دخلوها كلاجئين يستجدون الأمن, وفي أغلب الحالات فإن هذه البلاد تؤمّن لهم حتى الراتب الشهري مجاناً وكذلك لا تمنعهم من نقدها في وسائل الإعلام حتى يمارسوا حرياتهم ويشعروا بالمسؤولية تجاه البلد الذي استقبلهم كضيوف وحقَّق لهم الأمن والعيش الكريم, ولتعزيز هذه الحالة تمنحهم البلاد جنسيتها كما حدث مع راضي, ويأتي هؤلاء ليستغلوا حتى الطائرة المدنية التي مهمتها نقل المدنيين بأمان إلى الجهات التي يريدون الذهاب إليها.

أظن أنه من واجب أي كائنٍ وهو داخل وسيلة الركوب الآمنة هذه أن يُقدِّم ما بوسعه إذا أصاب أي عطل هذه الطائرة لينقذها، لا أن يفعل ما بوسعه

ليقود بها إلى بناء مدنيٍ، ليفعل ما يفعل بنفسه وبالناس ومن ثم يتسبَّب في قتل وتشريد مئات الآلاف من أبناء جلدته كرد على هذا الفعل.
ثم فوق كل هذا فيزيدون المأساة مأساة بمواصلة التفجيرات في بلدانهم هذه المرة, وكأن الجيوش الكاسحة لا تشفي غليلهم بهذا الدمار.

هل كانوا يظنون بأنهم سيقدمون على مثل هذا العمل فيكون رد البلاد أن تداوي جرحاها وتدفن موتاها, ثم تخلد إلى النوم بانتظار فعل مماثل إلى أن تنتهي البلاد وينتصر هؤلاء, وأي نصر سهل هذا الذي كانوا يظنونه.
هؤلاء الناس لا يعرفون الخسارة, لأنهم يقفون على خلفية من النضج والقوة, حتى الضربة التي تصيبهم فإنها تزيدهم قوة لأنهم أقوياء, لقد خسروا بضعة آلاف من الناس, وخسروا بناءين, ولكنهم استطاعوا أن يُحطّموا جيشَين, ويحتلّوا دولتَين، ولا أعتقد بأنهم سيكتفون بذلك، لقد فعلوا هذا كخطوة عاجلة لمواجهة الحدث، وما تبقَّى سيكون وفق نفسٍ طويل على مراحل.

إن مَن يقوم بأعمال كهذه عليه أن يصمد في مواجهة رد الفعل, وعليه أن يكون مستعداً وصامداً لحماية أراضيه وناسه، أو يموت فيهم بدل أن يختبئ في الكهوف ويترك أبناء جلدته يدفعون الثمن.
البطولة أن تواجه خصمك وجهاً لوجه سواء بالسلاح أو بالحوار, فَمَن الذي حقَّق البطولة ومَن الذي انتصر ومَن الذي يفخر بقوته.
إن عداوتنا لبعضنا البعض لهي أشد مرارة وضراوة من أي عداوة أخرى لنا في هذا العالم, لا أعرف لماذا يُصرّون بأن لنا أعداء, العالم كله ينسى الماضي ويجنح إلى الحب.

ما ألحقناه بأنفسنا من هزائم هو أشد وأقسى من أي هزيمة تلقيناها, لم نخض حرباً رابحة مع الآخرين, كل حروبنا كانت خاسرة, الحروب الوحيدة

التي ربحتها جيوشنا هي حروبها الفتاكة ضد أبناء جلدتها, يمكن لنا أن نحارب بعضنا البعض سبع سنوات متواصلة, يمكن أن نغزو بلدان بعضنا البعض ونحطّم ثروات بعضنا البعض, ونحرق بعضنا البعض بأفتك الأسلحة.

هل يمكن لي أن أكون سعيدة وأنا أرى الآخرين يبنون ونحن نهد, ينتجون ونحن نستهلك, يتقدمون إلى الكواكب, ونحن نتهاوى إلى سابع أرضين إلى درجة أنهم غدوا يصوّبون إلينا نظرات سواء أكنا داخل أراضيهم أم خارجها بأننا عالة على الكرة الأرضية كلها, لا نستطيع أن ننجح في شيء غير أن نُفجّر منازل بعضنا البعض, نسطو على أموال وحرمات بعضنا البعض, نحيل مساحات أراضينا إلى مقابر لجثث بعضنا البعض, نحيل مدننا إلى أقبية وزنازين لبعضنا البعض, ونتحوَّل إلى أكثر أمم الأرض أميةً وجهلاً، أجل نحن أكثر أمم الأرض لا قراءة, أكثر أمم الأرض أميةً وجهالةً رغم أن كِتابنا لا يحمل اسم التوراة, أو الإنجيل, وإنما يحمل اسم القرآن، فكان علينا أن نغدو أكثر أمم الأرض قراءة والكلمة الأولى في كِتابنا كانت دفعاً قوياً نحو القراءة.
إننا نركض إليهم حتى من أجل حبة أسبرين, إنهم يقدمون كل منجزات العصر للكرة الأرضية, في الموسيقى, وفي الفكر, وفي السينما, وفي المكتشفات الطبية, في التكنولوجيا, وحتى في منح كبرى الجوائز في مجالات الإبداع لأبناء البشرية. ونحن ما نزال نقدم منجزات في تجويع بعضنا البعض ونخطط كيف يمكن أن ننجح في تفجير حافلة، أو مطعم, أو مسبح, أو ملهى, أو بناء.
إننا ننجح في أن نحوّل طاقات شبابنا إلى قنابل فتاكة، أجل إنني لا أملك غير أن أصمت عندما يقولون لي هذا في جلساتنا هنا ويصبّونه على أذني.

منذُ مُدّة قالت لي إحدى صديقات فرجينا بأن كل هذه البلاد بطولها وعرضها لا تحتوي على شخص واحد موقوف لأجل كلمة قالها سواء قالها لعشيقته, أوقالها في قناة فضائية, أو لنفرض قال بأعلى صوته: أنا أكره الحاكم.
فيقول الحاكم: ومن قال بأنني أريد أن ينضم الجميع إلى تأييدي, وأي غبي أنا حتى أظن بأن الناس جميعاً يحبونني وهم جميعاً لا يحبون الله الذي خلقهم، عندما لا أجد معارِضاً، فإنني سأصنعه حتى أستطيع أن أعمل من خلاله.
وتقول بأنني سعيدة هنا لأنني أعيش كل الحرية وأستمتع بما أشاء من ألوان الحياة والرفاهية, هذا صحيح، الإنسان يعيش هنا مدلّلاً, لا يمكن له أن يشتهي شيئاً ولا يجده, ونحن نسعى في بعض الأسابيع أن نبحث عن يومين لا نأكل فيهما اللحم, لكننا لا ننجح إلا نادراً, لا يأتينا فصل جديد ولا نشتري فيه ثياباً جديدة ليتم تحويل الثياب القديمة إلى تلك البقاع, وحتى أجهزة الهاتف والأحذية وما نشاء فإنها تتحوَّل إلى أناس العالم السفلي الذين يتلقفونه من أناس الدرجة الأولى.

لكن الذي لا تعرفه والذي أعيشه بكل مرارة أن كل هذه السعادة تقابلها تعاسة وأنا أذكر كل لحظات القسوة هناك, وعندها أدرك بأن الإنسان ليس بوسعه أن يكون سعيداً في أراضي الآخرين, لأن مشاعر الغربة تبقى مستبدّة بذرات روحه, ويدرك في عمقه بأنه لن يستطيع أن يكون سعيداً إلاّ في دياره.
لابد لي أن أتحدَّث وأترك كل هذه المشاعر هنا وأنا أغادر المكان, وليس غير الحديث والدموع وسيلة لتخفيف جزء من معاناة الروح, ولا أرجو غير أن أرى ذاك اليوم الذي تسطع فيه شمس الإنسان على أرضي, حتى لو كان اليوم الأخير لي, سيكون ذاك اليوم الحقيقي المجيد كألف عام, سأعيش

كل ساعة فيه دهراً, لأنني سأودّع الكون، والشمس ساطعة على أحب بقاع العالم على قلبي.
بالأمس سمعت راضي يهمس لفرجينا: مسكينة رضوى, إنها مصرّة أن تتجه نحو زنزانة مظلمة, لا أعرف كيف سيكون بإمكانها تحمّل الحياة بعد أن أمضت كل هذه الفترة هنا, سوف تتجه إلى أشد ألوان العذاب الروحي وهي تحمل كل تلك الحساسية المفرطة في روحها.
لو كان الأمر بيدي لأرغمتُ عليها البقاء هنا, إنها أختي وهي جزء مني, لكنني لا أرغب أن أفرض عليها أمراً لا تبتغيه.
قالت فرجينا: أصارحك بأن شعوري لا يختلف عن شعورك, فأنا أشفق بها لكن يبدو بأنه الحب الذي يشدها إلى تلك البقاع المظلمة, لا أعرف كيف يمكن للإنسان أن يحتمل العيش يوماً واحداً بدون أن يتمكَّن من ممارسة حريته الشخصية.

أجل لقد كانت دموعي تنهال كالمطر وأنا أسمع حديثهما, وأبتلع غصات قاتلة في حنجرتي. ولكنني كنت أدندن في سري وكأنني أشدو بأغنية: أجل, سأعود إلى حرارة تلك الشمس اللاهبة التي تحرق العظام,
إلى ذاك الصقيع الذي يتسرَّب إلى الروح,
إلى عواصف الغبار التي لا تنتهي,
إلى طقوس الخريف الهرم والربيع الذي لا يأتي كاملاً.

ياه, كم أشعر بالخزي وأنا أعود بمخيّلتي إلى وقائع السواد التي كنتُ أراها أو كانت تُروى على مسامعي من خلال معارفي.
أشعر بالخزي وأنا أستعيد كلمات جارة معلّمة كانت تأتي لي فتروي كيف أنها استطاعت أن تتحايل على مديرها لتأخذ إجازة يومية حتى تكون إلى جوار أمها المريضة في المشفى, ومن الطرف الآخر كان زميلها المعلم في

المدرسة المجاورة قد تحايل بذات الطريقة فيمضيان ساعات الدوام على سرير غرفة نومه.
لا أعرف كيف يذهبان نهاية الشهر ليقبضا قيمة هذه الساعات من مديرية التربية, وكيف يكون مستقبل الجيل الذي لسوف يتخرَّج من هذَين المعلمَين.

كنتُ دوماً أقاطعها وأذهب إلى المطبخ أو إلى أي مكان آخر حتى لا أسمع المزيد الذي يضعني في حالة هستيرية تجعل اضطراباً في أعصابي ثلاثة أيام متواصلة لا أذوق فيها لحظة نوم, وأحيانا كنتُ أقول أن ثمة قوة خفية قد سلَّطت هذه الكائنة لتفسد علي حياتي, كنت ألمح لها بقوة ألاّ تأتي, ولكنها كانت تبدي برود عجيباً وهي تضحك متجاهلة استيائي من حضورها، وكانت أمي دوماً توبخني على برودة استقبالي لها وتقول أن ذلك لا يجوز بأي حال مع جارة وضيفة وإنسانة متعلّمة تربّي جيلاً. وعندما كانت تذهب كان ذلك يعني دخول جارة أخرى في ذات اليوم أو في اليوم التالي..تأتي لتروي لي عن آخر بطولاتها بأنها نجحت في اصطياد رجل لتمنحه جسدها وتوقعه في شباكها فيكون مضطراً للزواج منها حتى لا ينحرم من عسلها بعد أن ذاقه, لا أعرف بأي طريقة كانت تفكّر تلك المرأة الغريبة, كان لديها اعتقاد بأن الرجل الذي يمارس النوم مع امرأة فإنه سيقاتل العالم كله من أجل أن يتزوجها ولا تذهب إلى غيره, وكلما كانت ترى إخفاقها في ذلك وترى بأن ذاك الرجل تزوج من امرأة غيرها وهي تقول بغرابة: لم تكن تسمح له حتى بالسلام عليها, لم يلمسها ورغم ذلك تركني أنا التي منحته كل شيء وراح ليتزوجها, إنه خائن قواد.
تبدو هذه المرأة شاحبة ثلاثة شهور متواصلة تستخدم فيها الأدوية النفسية المهدئة حتى تستطيع أن تنام ولو ساعتين في اليوم بشكل متقطّع.
مرة قالت بأنها ذهبت إلى ذات الرجل ليلة زفافه لتبصق في وجهه قائلة: أنت قواد.. أنت وعدتني بالزواج وأخلفت وعدك معي. فما كان من الرجل إلا أن صفعها وطردها من بيته ركلاً بالقدمين.

وبعد شهور أخرى تأتي لتقول لي بأنها تعرَّفت على رجل جديد يستحق أن تمنحه المرأة كل شيء يريده منها, وأنها لم تتردَّد من إعطائه ما أراد منها لأنه يبدو شهماً كريماً وهو بعد أن ذاق عسل جسدها، فلن يكون بمقدوره الابتعاد عنه, إنها الطريقة الوحيدة للحفاظ على الرجل وجعله في شباك المرأة. ولكن بعد شهور أخرى تأتي لتكرّر على مسامعي بأنه كان نسخة مكرَّرة من الرجل الذي سبقه، فتزوَّج هذه المرة امرأة لم يرها بحياته غير مرة واحدة عندما ذهب لينظر فيها وتنظر فيه في بيتها برفقة أبوَيه ويطلبها في اليوم التالي. تقول بأن ذاك الرجل المتخلّف لم يكن يستحقني ولذلك لابد أن أرى ذات يوم الرجل الذي يستحقني ويعرف قيمة عسل جسدي.

أحياناً كانت تأتي متحجّبة وكأنها جاءت من مكة للتو, فأقول دَهِشة: هل تبتِ؟

تضحك وتقول: وما الذي فعلته لأتوب, لكنه الرجل الجديد الذي تعرَّفت به طلب مني أن أكون متحجّبة.

تمضي في هذه الحالة نحو ثلاثة شهور, ثم أتفاجأ بها في إحدى الشوارع تمضي مكشوفة الرأس وبارزة الصدر والساقين, فأقول: ما الذي حدث؟

تجيب: تركتُ ذاك السافل, وتعرَّفت برجل حضاري طلب مني أن أكون حضارية حتى لا يخجل مني أمام أصدقائه.

وكنتُ لا أخفي نظرتي عنها فأقول لها: والله أنت امرأة حسب الطلب.

كانت تلك الجارة إذ ذاك قد بلغت الخامسة والأربعين وكانت تعمل موظفة في إحدى الدوائر وعلى وشك أن تتقاعد, ولست أدري إن كانت قد وجدت ذاك الرجل الذي يستحقها ويعرف قيمة عسل جسدها.

تلك الأمور لم أكن أرويها لك ولا أعرف لماذا كنت دوماً أتحاشاها عندما كنا نلتقي أو عندما كنا نتحادث في الهاتف, ولكن أذكر بأنني مرة انفجرت فيها بغضب وأنا أصرخ في وجهها: الرجل الكريم الشهم يعز عليه أن يضع حبيبته التي يحبها ويريد أن تكون حليلته و تحمل تاريخ أسرته التي سيكوّنها في موقف كهذا.

ياه.. ها هي النسمات تعود بقوة إلى مخيلتي وكأنني الآن هناك أمشي بخطواتي الثقيلة ونظراتي المستغرقة في تلك الطرقات الغارقة في حالة حداد أزلية, أستمع تلك الضحكات الغاصة في نبرة بكاء ثقيلة, ونشرات الأخبار المزمنة والمتلاحقة بقوة الرعد وهي تقطع حتى برامج الأطفال لتجلد أسماعهم وحواسهم بنداء التأهب التام لقرب وقوع حرب مصيرية كبرى مع إسرائيل, الحرب التي ترفض أن تقع, وترفض ألاّ تقع منذ ثلاثين سنة, ونحن نتأهب لها ونسدد ضرائبها من حرق أعصابنا وقوت يومنا ومستقبل أجيالنا أكثر مما لو وقعت مئة مرة.
الحرب التي وقوعها بات رحمة بنا وبتنا نتمناها يوماً قبل يوم حتى تأتي كالموت أو كالحياة لتضع حدّاً لحالة التأهب التي أحرقتْ أعصابنا أكثر من ألف حرب.
وأتخيَّل جبال الصحف والمجلات, سنوات البث الإذاعي والتلفزيوني, ملايين الناس الذين أضاعوا سنوات أعمارهم في ثكنات مغلقة, دم العمال الذي يُشترى به السلاح, مساحات الأراضي الشاسعة التي تتحوَّل إلى ثكنات ومخابئ للأسلحة, الطائرات الحربية التي تحلّق فو رؤوسنا وتملأ بيوتنا بقصاصات تفوح منها رائحة الحرب.
وبعد كل هذا هل حقاً ستستطيع هذه الحملات أن تصمد في وجه ريح حرب حقيقية ثلاثة أسابيع.

سأعود مرة أخرى إلى تلك الأجواء الملتهبة حيث كل شيء يرزح تحت ثقل حالة طوارئ أبدية لا تعرف لحظة استقرار. وبذات الوقت تجلدني كلمات فرجينا وهي تصبّه كالنار في سمعي بكل ما لديها من صراخ وانفعال: لا تهمني اللغات والأعراق بقدر ما يهمني الإنسان ككائن إنساني, فيكون من حقي أن أنظر إلى مَن لديه على سطح هذه الأرض رصيد أكبر في المقابر الجماعية بحق شعبه, في إبادة معارضيه بالغازات، في قرى كاملة بكل ما

تحتوي من عناصر الحياة, في القتل الجماعي والفردي, في أعداد سجناء الرأي الذين يرزحون في سجونه المظلمة من أبناء جلدته, في أعداد المنفيين واللاجئين الذين لا يتمكّنون من العودة حتى في أقصى الحالات الإنسانية ولو لساعة واحدة.

ثم تردف بهدوء محاولة التمسك بانفعالها: الناس في هذا البلد الذي نعيش فيه ليسوا أقوياء بما تملكه الدولة من سلاح أو إنجازات علمية, إنهم أقوياء هنا بقوة القضاء الذي لا يعلو عليه صوت, وهذا يحقق للناس السكينة والأمن ويعزز في نفوسهم المشاعر الوطنية أكثر من أي سلاح أو ما ل أو إنجازات علمية.

صوت المعارض هنا صوت مقدس لأن كل شخص من أبناء الشعب يتحوّل إلى معارض, وهذا القائد كان منذ أيام معارضاً, وبعد أيام سيعود إلى المعارضة عندما يسلّم القيادة لِمَن يعارضه, وإذا قَبِل أن يقمع معارضيه سيكون عليه أن يقبل ليقمعه معارضوه بعد أيام عندما يتسلّموا منه القيادة.

كل هذا أسمعه وأراه هنا, الناس يتحدثون وفق قناعاتهم ومفاهيمهم, ولكن أرى ميل البلاد الشديد إلى مواطنيها, حتى في تلك الأحداث المرعبة لم تقدم البلاد على اعتقال مواطنيها أو تعذيبهم, بل كانت تخفف عنهم وتقف إلى جانبهم, وحتى إذا رأت شخصاً وقد أدين بتهمة ما فإنها تخفف عليه ما أمكن وتعامله بمشاعر وطنية لينة لا يراها غير المواطن, إنهم يتسامحون على الأغلب مع مواطنيهم بما لا يتسامحون به مع الآخرين, ويمرّقون لمواطنيهم هفوات في الداخل أكثر مما يمرّقونها للآخرين.

انتظرني لحظة حتى أشعل سيجارة، هل يأتيك صوتي واضحاً، لتطل هذه المكالمة ما بوسعها، إنها النبرات الأخيرة التي أتركها في هذه البلاد، ليست ثمة مشكلة مادام المرء سعيد مما يفعل، ويخفف عن روحه شيئاً من الألم.

كنت أرغب في أن أقول لك أن كل التاريخ البشري لم يشهد ما نشهده من اجتهادات على صعيد إلحاق أقصى ألوان العذاب بالإنسان، ففي اللحظة التي

لا أنام فيها ثلاثة أيام عندما أرى عصفوراً جريحاً، كيف لي أن أضحك في ذروة مشاهد الرعب التي يأتي فيها إنسان فيحيل جسده وأجساد الناس إلى أشلاء, وكيف يمكن لي أن أقدّم إليه التهنئة حتى لو ربح السموات والأرض, وأي ربح في الأرض هذا الذي لا يأتي إلا بالاعتداء على حرمة نفس إنسانية وتشويهها هذا التشويه اللاإنساني بأي شكل, وأي جنة في السماء التي لا يدخلها المرء إلا عبر هذه الوقائع المرعبة.
أجل هل تسألني ماذا نريد من بعضنا البعض وإلى أين يودي بعضنا ببعض في هذا البغض اللامتناهي الذي يكنه بعضنا لبعض, وهل نحن أكثر من نزلاء على هذه الأرض, أليس الحب هو رصيدنا الأوحد خلال هذه الاستضافة.
أقول لك بأن الكرة الأرضية برمتها والسموات أجمعين في مذهب الأخوة الإنسانية لا تتساوى أمام إطلاق إنسان النار على نفسه, أو يقف ليطلق النار على أي كائن بشري من أجلها, ولو وضعنا في هذا المذهب قطرة دم من قلب إنسان في كفة, ووضعنا في الكفة الأخرى الأرض وما عليها لرجحت كفة قطرة دم الإنسان, وعندها تروي لنا الكفتان كيف أن الأرض وما عليها قد وُجِدَتْ من أجلِ الإنسان, ولا تشرق إلا بنور الإنسان, وعندما يغيب عنها الإنسان فإنها تلبث في حلكة ظلامٍ أبدي.

أمام هذه الوقائع دوماً أقول لك لا أدري كيف تأتي جمعيات فتطلق على نفسها مهمة الإنسانية وهي تعجز أن تخلع شوكة من قَدَم إنسان, وهي ذاتها تتفرَّج على آلام الإنسان بدل أن تتدخَّل لتمنع الإنسان من أن يجرح نفسه بخرم إبرة.
منذ أيام شاهدتُ منظراً باهراً في التلفاز, وكان عندما قام رجلٌ من أبناءِ جلدتنا بقتل ابنته البالغة من العمر ثمانية عشر سنة لأنها أقامت علاقة مودة مع رجل من أبناء البلاد التي استضافته ومنحت له ولأسرته المسكن والأمن

والدخل الشهري لأنه لجأ إليها كحالة إنسانية وقد هرب من بلاده بسبب الجوع والبرد والخوف.

شاهدتُ كيف أن كبرى الشخصيات الرسمية من قمة وهرم الدولة تشارك في تشييع جنازة هذه الفتاة, كانوا يمضون بكل خشوع ووقار في رفاة صوت من أصوات الحرية وهو ينادي بأن حرية الإنسان الشخصية هي ملكه الخاص, وما حدث أن هذا الصوت قد مارس فعلَ الحرية، وعاشه حقيقة وقَبـِلَ المواجهةَ الحادة مع الطرف الآخر.

لقد أبهرني المشهد المتلفز وأنا أتخيَّل فيما لو كان عندنا, وهل كان سيرضى مدير منطقة نائية أن يمضي بضع خطوات في تشييعها وهو يحمل باقة ورد.
أنت تعرف بأن حديثاً كهذا يُسبّب لي الألم, ولكنه مفروض علينا حيثما يممنا وجوهنا, إنه الحديث الكريه على نفسي الذي لا أجد مهرباً منه حتى وأنا أتقلَّب في الفراش. لكنني متفائلة رغم كل هذا الانهيار, متفائلة بأن المستقبل سيكون للسلام ولن يكون للحرب, ولا أحد ينتصر في الحرب مهما تبدَّى له النصر, ولكن الجميع ينتصرون في السلام الذي أراه يعم العالم لأن المستقبل لن يكون إلاّ للإنسان الفطري النقي الذي يناشد الحب والبناء والتسامح.
لا يوجد أبطال في الحروب أبداً, كل أبطال العالم هم أبطال السلام, لا يوجد كائن يفتخر على قدر ما فتك بالأرواح وشرَّد من ناس أو حتى دواب, ولكن البطولة دوماً هي لذاك الذي بنى وأضحك وأبدع وتسامح وأحب وأنقذ وخفف من الآلام.

ليس بوسع رب أي عائلة أن يحقق بطولة، أو يقدّم شيئاً مجدياً لعائلته، إلاّ بقدر نجاحه في بناء علاقات إيجابية، وتواصلية، وانفتاحية، وسلمية مع أكبر قدر ممكن من العائلات الأخرى التي تعيش في زمنه، ويحقق من خلال ذلك

أكبر مساحة ممكنة من الرفاهية لمن يعيل، ويخفق في مهمته ليس لعدم تمكنه في تحقيق ذلك, بل بقدر ما يتسبب في حالات القطيعة بين عائلته وغالبية العائلات الأخرى مما ينجم عن ذلك إلحاق حالات الحصار والجوع والبرد والخوف بعائلته من الداخل ومن الخارج.

أجل، سوف أعود وأنا ممتلئة بالشوق، أعود دون أي شعور بلحظة يأس إلى تلك الأراضي التي ولدتُ فيها، وتبقى الأعز على نفسي، وغداً.. غداً سوف نستطيع أن نملأها بالزهو, إنني متفائلة بأن القادم سيكون مزدهراً، وإن واجهتنا أشواك كثيرة علينا اقتلاعها، ولن يقتلعها أحد نيابة عنا.
ليست البطولة أن نهرب من بقاعنا في أزماتها، ولكن البطولة أن نبقى فيها، وهي تعيش ذروة أزماتها، ونقف جنباً إلى جنب مع ناسنا، وكل واحد منا يعزّز طاقات المحبة والتفاؤل في الآخر، كل واحد يكون قوياً بالآخر حتى تبقى بلادنا قوية بنا، وحتى نبقى أقوياء بها، ونحن ندرك بأن بلادنا لاتكون قوية دوننا، ولا نحقق أي قوة دونها، لقد قمتُ برحلة، ولم أقم بهجرة، ولذلك هاهي كل ذرة فيّ تستعدّ بكل حنين للعودة إلى بيت الروح.
مهما ابتعدتُ عن المكان، فإن رائحته تفوح مني بقوة، وتلح علي بالعودة إلى كل تلك الأزقة التي افتقدتها، إلى كل تلك الطرقات التي مضت فيها قدماي خطوة خطوة، سنة بعد سنة.
علي أن أتخلّص من هذا الشعور الذي يبقى ملازماً لي طوال الوقت بأنني غريبة، وصدى صوت بلادي يخترق حواسي من بعيد، بعيد أن تعالي، لا يساوي أحدنا شيئاً دون الآخر.

الفصل الثامن

ساد صمتُ مهيب، لبث مسترخياً في جلوسه، وللتو أدرك أن الدموع تنهمر من عينيه، وأن غصّةً ثقيلةً اعتلت حنجرته.
بعد قليل، وكما لو أن غيوماً داكنة بدأت تنقشع عن سماء أرض عتمة، أخذت ظلمة الغرفة تتبدَّد شيئاً فشيئاً، حتى بات يرى ما حوله بشكل جيد، عند ذاك لفتت ثيابه المبلَّلة نظره، ثم غدا ينظر إلى تسرّب قطرات الدموع من خلال الثياب إلى الأرض.
لم يكن يخطر في باله أنه ذات يوم سيكون في مواجهة موقفٍ كهذا، وفي ظروفٍ كهذه، فما الذي أتى به إلى أنقرة، وما الذي أتى به إلى السفارة الأمريكية، وما الذي جعله يترك بلاده، ما الذي.. ما الذي..
وما الهدف الذي يقف خلف كل هذا الذي يقع لبلاده، هل ثمة أناس يحقّقون الطمأنينة على مستقبلهم جراء ذلك، هل ثمة أناس يحقّقون مستقبل أطفالهم جراء كل هذا الذي يفعلوه، هل ليتمكّنوا من الضحك، والرقص، والنوم، وأنهم لن يتمكّنوا من ذلك دون هذه القيامة التي يقيمونها على بلاده.
بعد قليل انفرج الباب، وتناهى إليه صوت: تفضل يا أستاذ.
نهض من الكرسي، فرأى شخصاً يدعوه للجلوس في حجرة أخرى قائلاً بأن السفير مشغول الآن، وسيناديه عندما يفرغ.
عندما خرج، بدأ الرجل ينظر في ثيابه المبللة من الأعلى إلى الأسفل، ثم ما لبث أن قال له: هل يلزمك شيء أستاذ؟
وضع كفه على صدره مجيباً: ممنون.. ممنون.
أحضر له الرجل منشفة، مع علبة محارم، ثم غاب قليلاً، وعاد يحمل إليه كاساً من الشاي، مع عبوة ماء.
جلس كالمصعوق، وبدأت الصور تتداعى إلى مخيّلته، فها هما يتزوّجان بعد عودة رضوى بشهرين، ها هما يسكنان البيت الذي يملكه، وقد بدأ يكتشف في شخصيتها ما لم يكن قد اكتشفه من قبل، حتى أنه أحياناً يشعر بأنه لم يكن

يعرفها من قبل، وهذا ما يجعله يزداد تعلقاً بها، كانت الليالي الطويلة تمضي وهما يتحدّثان، وكانت أحياناً تستغرق في أحاديث عميقة تجعله يشعر بالدهشة وهو يصغي إليها.

بدأت تلفت نظره بذكائها، وكيف أنها تكون حريصة على تطوير شخصيتها، ولا تترك شيئاً دون أن تتعلّم منه، وهي تقول له: يمكن للإنسان أن يتعلّم من كل شيء، حتى تلك الأشياء التي نعتبرها سخيفة، فإننا نتعلّم منها.
بدءا يعملان معاً حتى استطاعا أن يؤجّرا مقراً وهو عبارة عن قبو في المدينة، جعلاه معهداً، فبدأت رضوى تقوم فيه بفتح دورات لتعليم اللغة الإنكليزية، وهو يقوم بتعليم استخدام الحاسوب. بدأ العمل يدر عليهما عوائد جيدة حتى أنهما بعد أربع سنوات اشتريا محلاً وسط المدينة يمارسان فيه مهنتهما، وبعد نحو سنة أخرى أنجبت رضوى ابنتها (رحاب).
كانت رحاب بمثابة نافذة جديدة لهما على العالم فصارا يريان من خلالها ما كانا لايريانه من قبل.
عندما بدأت الشرارة الأولى من الأحداث في سورية، قالت رضوى: الآن سيتمكّنون منّا أكثر، الآن سيجعلوننا نتوسل إليهم، ونحن ما نزال نقدّم اعتذاراتنا وتضحياتنا على ما بدر من أبنائنا تجاههم. سيوجهون أبناءنا إلينا، ليُدفعوننا نتائج تربيتنا الخاطئة لهم، سيلقنوننا دروساً لن ننساها، على هذا النحو، لقد تم العمل طويلاً وحثيثاً لهذا الاتجاه: كيف نجعل الذي يفخخ شوارعنا، يفكر بتفخيخ شوارعه، كيف نجعل الذي يفكّر بقتل مواطنينا، يفكّر بقتل مواطنيه، كيف نجعلهم يصطدمون مع بعضهم البعض، ونحن نتفرّج من بعيد ونحرّضهم على بعضهم البعض، وعندما يضعف طرف، نمدّه بما يجعله مستمراً.

بعد نحو سنتين من انفجار الأحداث في سورية، تحدّثت رضوى هاتفياً مع صديقتها (كيت) وهي تعلم بأن عمّها(سيناتور) فقالت لها كيت بأنه يقول:

يهمني كثيراً ألاّ تكون صديقتك قد أخذت نظرة سلبية عن الولايات المتحدة، أنا أشاركها المشاعر بأن بعض ما نقوم به تجاه بلادها هو عمل غير أخلاقي، وأيضاً غير إنساني، لكن ألا ترى بأن ما يقوم به أبناؤهم في ديارنا نتيجة تربيتهم السيّئة لهم بأنه أيضاً عملُ لاأخلاقي، ولا إنساني.
نحن نريد أن نقول لهم: ألا امسكوا أبناءكم عنّا، فأن تنجبوا الأبناء، وتفشلوا في تربيتهم، ثم تقذفوا بهم إلينا ليفعلوا ما يفعلوا، فلا يكفي أن يبدي بعضكم كلمة إدانة، في وسيلة إعلام، وقد لا يبديها، وأنتم تسترخون على الأرائك، أليس من الخطأ أيضاً أن يذهب الظن بصديقتك بأن إذعاننا لذلك هو عمل أخلاقي وإنساني نقدّمه لشعبنا ونحن نفشل في حمايته من هؤلاء الذين لم يحتملهم ذووهم، فصدّروهم إلى ديارنا.

بعد أن أنهت مكالمتها مع صديقتها، قالت له: علينا أن نتعلم كيف نربي أبناءنا التربية الصحيحة التي تجعلهم يرتدعون عن الصِدام مع بعضهم البعض، عندها سيتوقف هؤلاء، لأن الأوراق كلها ستكون قد خرجت من أياديهم، وبذات الوقت يكونون قد حققوا أهدافهم أيضاً، لأن نجاحنا في تربيتنا لأبنائنا يجعلهم يرتدعون عن الآخرين أيضاً، فما دام الأبناء يستجيبون لهذا الصِدام، فإنهم سيتلقون كل مقومات الاستمرار، لأنهم يبقون يُشكّلون ذات الخطر على الآخرين إن عادوا إليهم، فهم إما أن يصطدموا في بلادهم مع بعضهم البعض، أو يصطدموا مع الآخرين خارج بلادهم، أو يتلقون تربية صحيحة تجعلهم يتجنّبون الصِدامَين معاً.

لقد عمل هؤلاء طويلاً حتى تدرّجوا بنا إلى ما نحن عليه، أنا مرتعبة من الذي يحصل، ما الذي يفعله هؤلاء المجانين، هل يريدون لأمة بأكملها أن تدفع ضريبة هجمات سبتمبر، هل يريدون أن يوصلوا رسالة لنا بأن علينا أن ندفع ضريبة عدم تربيتنا لأبنائنا، وعدم ضبطهم، وأن نحتمل نتائج ما قاموا به من وزر.. صدّقني، لو أراد هؤلاء أن يقتلوا أسامة بن لادن، أو

يعتقلوه، لكان لهم ذلك في ظرف يومين، وهو الذي يظهر كل يوم على شاشات التلفاز، ويعلمون حتى عدد ساعات نومه، واستيقاظه، وما يأكل من طعام، لكنهم يتعمدّون تأجيل ذلك حتى تبقى المساحة مفتوحة كي ينتقموا من ذويه، حتى يحين الميقات المناسب له، لأنهم ما اعتادوا على ترك مَن يعتدي عليهم، لقد تآزروا وترابطوا جميعاً علينا، حتى صدام حسين ما كان الأمر يحتاج إلى كل هذا الدمار الشامل من أجل إزاحته عن الحكم، وكان يمكن أن يحدث ذلك دون كل هذا الذي وقع، لكن بدا لهؤلاء جلياً أن كل الأبواب تبقى مسدودة أمام استفحال الفوضى في ديارنا بوجود حكّام يرتعب الناس منهم، والخطوة الأولى في هذا المخطط تكون من خلال كسر هذه الهيبة في نفوس المرتعبين، كانت المنطقة تشهد وجود ثلاثة حُكّام لا يمكن أن يتزحزح شيء من موضعه بوجودهم، وحتى عملية اغتيالهم تُبقي تلك الهيبة في نفوس الناس، فكان العمل حثيثاً من أجل قتل الهيبة، لكن حافظ الأسد نجا من هذه المواجهة بسبب موته، وما يزال المخطط يتكلل بالنجاح، وهنا يمكن استدراج الحاكم الجديد حتى يُصبح شريكاً سواء بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة في استمرار المخطط، كي تمتص تلك البقعة كل شريري العالم الذين سيجتمعون للاقتتال في دائرتها، ويفتك بعضهم ببعض، وبذلك فإن العالم سيكون في مأمن مما هم عليه من نزعات الشر.

يذكر حديثها له في الشهر الماضي: ها نحن نقترب من انتهاء السنة الخامسة على الأحداث، وما نزال نفشل في تربية أبنائنا حتى يتوقفوا عن قتال بعضهم البعض بكل هذه الشراسة التي يمارسونها، وما زال الآخرون ينظرون إلينا ويتخيّلون بأن هذا كله لو لم يجدوا له تصريفاً هنا، لكان الآن في ذروة اشتعاله هناك، وقد بلغت إشارات إلى بعض الجوار أيضاً بأن وقوف العمليات هنا، يجعلها قابلة للانتقال إلى أي بقعة مجاورة.

في أمسية يوم الخميس، أخبرته رضوى بأنها ستمضي يوم غد الجمعة في بيت أهلها، وهو يوم عطلة بالنسبة لهما حيث لا يفتحان فيه المعهد، وفي الصباح عندما خرجت مع رحاب، أخبرها بأنه سيقضي بعض أعماله، وفي المساء سيتجه إلى هناك كي يجلبهما إلى البيت.

بعد خروجها بنحو نصف ساعة، دوى انفجار عنيف، هزّ أركان المدينة، هرع الناس على إثره إلى موقع الانفجار، في تلك اللحظات المروعة، أجرى اتصالاً مع أهل رضوى، فأخبروه بأنها لم تصل، عندها أجرى اتصالاً بهاتفها، دون جدوى، هبط قلبه، وبدأ كل شيء حوله يتوشح بالسواد.
لبث متنقلاً بين موقع الحادث، والمشفى، حتى تم إخباره من إدارة المشفى بأن رضوى، ورحاب كانتا من ضمن ضحايا الانفجار.
أمضى نحو شهر في عزلة وقد أغلق على نفسه الباب، حتى توصل إلى قرار ترك البلاد، وعندها لا يدري كيف خطر له أن يتجه إلى تلك البلاد، لكن الآن بدأ كل شيء ينقلب رأساً على عقب أمامه.
جلس نحو نصف ساعة، فعاد ذات الشخص وطلب إليه أن يتفضل لمقابلة السفير.
أحس بخجل شديد عندما بدأ السفير ينظر إليه، لا يدري لماذا خطر في باله أن السفير يقول في سرّه: الذي قتل ابنتك، وزوجتك، هو شخص من أبناء جلدتكم لم تفلحوا في تربيته، فكان عليه إمّا أن يقوم بذلك التفجير في أحد شوارعنا، أو أحد شوارعكم.

بعد لحظات من دخوله باشره السفير قائلاً: لقد نفذنا رغبتك يا أستاذ بالاستماع إلى المكالمة، ولدي إشعار يفيد بأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تُمانع من دخولك إلى أراضيها.
عادت كل تلك المشاهد تتداعى في مخيلته، وكل تلك الكلمات تنصب في سمعه، نظر إلى السفير وقال: يبدو بأنني تراجعتُ عن فكرة السفر، لابد لي

الآن من العودة إلى بلادي التي تركتها تنزف، وتقديم الاعتذار لكل ذرة من ترابها.